منهج التعامل مع القرآن في فكر الشيخ محمد رشيد رضا

قراءة تحليلية في تفسير المنار

د. زياد خليل محمد الدغامين*

(*) أستاذ مشارك في التفسير وعلوم القرآن.

ملخص البحث:

إن تفسير المنار نمط ذو صيغة تجديدية في التعامل مع القرآن الكريم، انبنى على خطاب وعظي إرشادي، ولكنه لم ينتظم في منهج جديد محكم متكامل القواعد والأسس، على الرغم من دعوته إلى تخليص تفسير القرآن من الشوائب والحجب. وأن مؤلفه قد أدرك قيمة الفهم الموضوعي الاستقرائي للنصّ القرآني، ودعا إليه، لكن لا على ذلك الاستيعاب والشمول الذي يجسّد حقائق القرآن المعجزة في المعترك الحضاري المعاصر، ولو فعل ذلك لكان مجدّداً في منهج فهم القرآن. لقد تشتتت جهوده في تفسير المنار على الرغم من غزارة وفائدة ما أورده؛ لأنه أخذ على عاتقه مهمة البحث في موضوعات أمة بأسرها، وهذا مما يحتاج إلى خبرة واختصاص وفرق بحثية متكاملة.

على أن الشيخ قد أعطى قدراً كبيراً من العناية في حديثه عن مقاصد القرآن، وحدد أهداف القرآن وغاياته في عشرة مقاصد رئيسة شاملة:

المقصد الأول: بيان أركان الدين: التوحيد، والبعث والجزاء، والعمل الصالح.

الثاني: بيان شؤون النبوّة والرسالة ووظائف الرسل.

الثالث: بيان أن الإسلام دين الفطرة السليمة، والعقل، والفكر، والعلم، والحكمة، والفقه، والبرهان، والحجّة، والضمير، والوجدان، والحرية، والاستقلال.

الرابع: بيان الإصلاح الإنساني الاجتماعي السياسي الوطني بالوحدات الثمان: وحدة الأمة، وحدة الجنس البشري، وحدة الدين، وحدة التشريع بالمساواة في العدل، وحدة الأخوّة الروحية والمساواة في التعبّد، وحدة الجنسية السياسية الدولية، وحدة القضاء، وحدة اللغة.

الخامس: بيان مزايا الإسلام العامة في التكاليف الواجبة والمحظورة.

السادس: بيان حكم الإسلام السياسي الدولي: نوعه وأساسه وأصوله العامّة.

السابع: بيان الإصلاح المالي.

الثامن: إصلاح نظام الحرب ودفع مفاسدها وفلسفتها.

التاسع: إعطاء النساء جميع الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية.

العاشر: بيان هداية الإسلام في تحرير الرقّ.

ويمكن إجمال هذه المقاصد في أمرين.

الأول: بيان التصوّر الحقّ لله الخالق، والكون الدالّ على خالقه، والإنسان الخليفة. وهذا مما سبق العلماء إلى بيانه بصورة إجمالية.

الثاني: عمارة الأرض وسياسة الحياة في ميادينها المختلفة بنظام الشرع وهدايته بعد الوقوف على سنن الله في الأمم والمجتمعات، وسنته تعالى في عالم الكون. وجاء هذا التفصيل في عرض مقاصد القرآن استجابة قوية لمواجهة التحديات التي أثقلت كاهل الأمة في المعترك الحضاري المعاصر. وتمثل هذه المقاصد غاية ما تطمح الإنسانية إلى تحقيقه في واقع الحياة، وهي مقاصد جديرة بذلك؛ لأنها منبثقة من وحي الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إلى نبيه ﷺ. لكن تبقى مشكلة تحقيق هذه المقاصد بعد تحديدها والتنظير لها، وقد تفاوت العلماء في ذلك.

مقدمة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد.

فقد نزل القرآن الكريم يهدي للتي هي أقوم، ويبشر المؤمنين، ويرشد إلى الصراط المستقيم. جعل الله تلاوته عبادة، والعمل به طريقاً إلى السعادتين، وسبيل عزة في الحياتين، وجعل النهضة والشهادة على الأمم أمراً مرهوناً باتّباع هديه، والعمل بسننه وآياته، ولا يكون العمل صحيحاً إلا إذا كان الفهم صحيحاً، ولا يتحقق الفهم الصحيح إلا بإحكام منهج النظر في القرآن الكريم، ولا يشك أحد في أن فقدان ذلك المنهج المحكم، أو عدم الوقوف عليه يؤدي إلى تراجع الفهم، ومن ثمّ تخلّف الأمة.

وإذا أُريد تعليل لظاهرة التراجع الفكري الذي ساد المذاهب الفكرية الإسلامية – كالشيعة بتعدّد فرقها والخوارج والمعتزلة والأشاعرة – في فهمها للقرآن الكريم؛ فإن المقام لا يتسع إلا لذكر عدم انضباط ذلك المنهج، أو غيابه تحت تأثير نصرة المذهب، أو اتجاه ذلك المنهج إلى التجزيئية في فهم النصوص بعيداً عن السياق والمقاصد القرآنية، فعلى سبيل المثال ترى المحكم عند قوم متشابهاً عند قوم آخرين، والعكس صحيح أيضاً. وترى المرأة طالقاً من زوجها على رأي، وهي حلال لزوجها – في الوقت نفسه – على رأي آخر.

وقد طغى هذا التراجع والاختلاف فشمل الحياة السياسية في الدولة الإسلامية حتى أصابها الوهن، وأسرعت فيها الفتن، فما الذي زج بعض خلفاء بني العباس في مسائل هي من إفراز العقل البشري ونتاجه، مثل مسألة خلق القرآن! أيعقل أن تكون هذه من الأولويات الأولى للدولة الإسلامية ووظائفها، فتنصر اجتهاداً على اجتهاد، وتؤثر رأياً على رأي، ويصل بها الأمر إلى التنكيل بمن يخالف رأي الخليفة!

ولا بد لنا من أن نتساءل: لماذا حرص كل مذهب على أن يستقل بتفسير للقرآن خاص به؟ ولماذا تعمّد بعض من هذه المذاهب تفسير القرآن الكريم بعيداً

عن هدي النبي ﷺ في التفسير؟ لِمَ لَمْ يقنع الشيعة مثلاً بتفاسير أهل السنة والجماعة؟ أو لِمَ لَمْ يقنع المعتزلة بتفاسير الأشاعرة؟ أما عن فرق الباطنية والفلاسفة التي أوغلت وتطرفت في فهم النص القرآني فحدّث ولا حرج؟

إن مقولة: «الاختلاف في التفسير هو اختلاف تنوّع لا اختلاف تضادّ» لا يصح قبولها على إطلاقها؛ لأننا قد وجدنا اختلافات بين المذاهب التفسيرية هي من قبيل اختلافات التضادّ، وبات في نظر كل مذهب أنه لا يمكن ردم الهوة بينه وبين المذهب الآخر إلا بإلغاء هذا الرأي الآخر والمذهب الآخر؛ لأن الهدف الذي سعى إلى تحقيقه كل مذهب كان ضيّقاً إلى أبعد حدّ، كان متوجّهاً إلى إقامة دعائم وحجج ومقوّمات بقاء لذلك المذهب، وغاب البعد العالمي لخطاب القرآن ورسالته. وضعف الخطاب الإسلامي الإنساني وانحسر إلى أبعد حد. وعجز الخطاب الإسلامي، أو خطاب الجماهير المسلمة عن تهيئة الأمة لمواجهة الأخطار المحدقة بها، أو لتأهيلها إلى الشهادة على الأمم، أو للشهود الحضاري بعبارة أخرى.

وواقع الأمة اليوم يشهد أننا ما زلنا نعيش في ظلال اختلاف التضاد الذي أطّره ورسم خطوطه السابقون من العلماء باجتهاداتهم. أقول: إنه لا ينبغي النظر إلى هذه الاختلافات على أنها مجرد اجتهاد ونظر، ولا ينبغي أن تشيع مقولة: «نجتمع فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه»، لأنها مقولة غير علمية*، ولا يحكمها منهج، بل لا تنبيء إلا عن عاطفة صادقة؛ لأن هذه الأعذار في نظر كل فريق غير مقبولة، فضلاً عن أنها تضع حداً لكل الجهود الرامية إلى توحيد منهج الفكر، ولم شمل الأمة، والعمل على وحدتها، بل ونهضتها.

(*) لا بد – هنا – من التفريق بين اجتهاد يقوم وينبني على أسس علمية موضوعية تصدق عليه هذه المقولة، واجتهاد قام يؤصل لمذهب فكري عقدي أو حتى فقهي بإغفال تلك الأسس أو تغييبها، وهو ما نقصده هنا. ورحم الله من قال من الأئمة الأعلام: «إذا صح الحديث فهو مذهبي» أو قال: «إذا رأيتم قولي يخالف سنّة الرسول ﷺ فاضربوا برأيي عرض الحائط»، وليت أصحاب تلك الاجتهادات الذين آثروا آراءهم على هدي النبي ﷺ أدركوا عظمة مثل هذه المقولات، وأدركوا مواقع اجتهاداتهم من مقاصد الوحي وهدايته وعالمية خطابه وعموم رسالته ورحمانية شريعته.

وما من ريب في أن الأمة التي تجعل من دينها موضع اختلاف، وتجعل من قرآنها سبيل فرقة – أمة غائبة عن واقع الحياة الذي تعيشه، ويشق عليها الشهود في مسرح العالم، صناعة للأحداث أو تأثيراً فيها بوصفها خير أمة أخرجت للناس. ومن هنا كان الوصف بـ «خير أمة أخرجت للناس» موازياً للشهود الحضاري، لا يتخلّف أحدهما عن الآخر، وإن تخلّف فلا بد من مراجعة شاملة لمعرفة مؤهلات هذه الخيرية من خلال إعادة فهم القرآن على وفق منهج محكم القواعد والأسس.

وهذه الدراسة ستتوجه – إلى واحد من كتب التفسير حاول أن يحمل هذا الهمّ، ويسهم في إعادة بناء الفهم، وإثارة هذه المعاني والمفاهيم في ضمير جماهير الأمة من المثقفين والمتعلمين، والناس عامة، من خلال تفسير القرآن، أعني: كل مفاهيم النهضة: «الوحدة»، «الرقيّ والتمدّن»، «الاجتهاد والتجديد»، «الهداية»، «السنن الإلهية»، «الشورى»، «الحرية»...، والتحذير مما يضادّها من «التفرق والاختلاف»، و«التقليد»، و«الضلالة»، والاستبداد، والمذهبية...، إضافة إلى إعادة بيان مهامّ القرآن الكريم ووظائفه ومقاصده التي جاء لتحقيقها في عالم الإنسان، وإعطائها أولوية بحثية، وبيان أهمية السنّة النبوية ومكانتها في علم تفسير القرآن الكريم. ذلك هو تفسير المنار لمؤلفه الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله تعالى.

إن هذه الدراسة تهدف إلى التعرّف على تصوّره لمنهج فهم القرآن من حيث المقاصد والأهداف، ومهمّات المفسّر ومؤهلاته، والأسلوب الذي نهجه في تفسير القرآن من أجل بعث الأمة على تحقيق الشهود الحضاري في عالم اليوم – بعد الفشل الذريع والهزيمة المرّة اللذين لحقا بكل الفلسفات والقيم والأفكار الوضعية – لا سيما وأن الشيخ رشيد قد كان على علاقة وطيدة بفكر بعض زعماء الإصلاح في القرن الماضي: أمثال السيد جمال الدين الأفغاني، والأستاذ محمد عبده – الذي أيّد معظم بيانه في التفسير – مما يجعله عالماً بمناهج الإصلاح الهادفة إلى معالجة هموم الأمة وقضاياها والتحديات التي تواجهها. وستبين هذه الدراسة – كذلك – موقفه من جهود المفسرين والطريقة التي تعاملوا بها مع القرآن الكريم، وستكون الدراسة ذات صبغة وصفية تحليلية.

وجاءت هذه الدراسة في أربعة مباحث وخاتمة:

المبحث الأول: مقاصد القرآن وتوجيه التفسير لتحقيقها.

المبحث الثاني: مراجعة جهود المفسرين السابقين.

المبحث الثالث: مؤهلات المفسّر وقواعد التفسير.

المبحث الرابع: اهتمامه بأزمات الأمة وبيان سبيل حلها.

الخاتمة: وتتضمن أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

المبحث الأول
مقاصد القرآن وتوجيه التفسير لتحقيقها

يمثل الهدي النبويّ المعيار الأمثل في التعامل مع القرآن الكريم، لا من حيث وجوب العمل بما ورد فيه فحسب، بل من حيث قيام هذا العمل على فهمه فهماً صحيحاً، وتفسيره بمنطق يرقى إلى مستوى المقاصد والأهداف التي جاء يحققها، وبخطاب يناسب رسالة القرآن في عالميتها وشمولها.

أقول: كلما كان التفسير منسجماً أو ملتزماً بهذا المعيار كلّما كان حظه من التوفيق كبيراً، ويكون الإخفاق نتيجة متوقعة لكل عمل تفسيري يفقد هذه المعيارية أو المرجعية.

ولا نقصد بهذه المرجعية أو المعيارية أن يحشد المفسر الروايات الكثيرة حول النص القرآني مما عُرف – لاحقاً – بـ «التفسير بالمأثور».

كلّا، فهذا الوضع قد ضجّ منه كثيراً صاحب المنار، بل هاجمه كثيراً؛ بسبب ما خالطه من أحاديث ضعيفة وموضوعة وإسرائيلية. ولكن المقصود النظر إلى المنهج الذي حقق به الرسول ﷺ مقاصد القرآن، وتمكن به من تفعيل النص القرآني في نفوس الأفراد، وفي ضمير الأمة وإحساسها، فكان المهيمن عليها، والحاكم على سلوكها، وكان الهادي والمرشد إلى تحقيق النهضة والشهود الحضاري.

هذا الهدف الأكبر هو الذي غلب على فكر الشيخ رشيد وهو يفسّر القرآن، فقد قرره في أول التفسير ناقلاً عن شيخه محمد عبده قائلاً: «والتفسير الذي نطلبه هو فهم الكتاب من حيث هو دين، يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة، فإن هذا هو المقصد الأعلى منه، وما وراء هذا من المباحث تابع له أو وسيلة لتحصيله»[(١)]. وهذا تجديد منهجي واضح للغاية التي أنشيء التفسير من أجلها، وتتمثل في تحقيق المقصد الأسني للقرآن الكريم.

---

(١) محمد رشيد رضا: تفسير القرآن الحكيم، الشهير بتفسير المنار (بلا تاريخ)، دار المعرفة، بيروت، ج١، ص: ١٧.

لقد أعطى الشيخ رشيد قدراً كبيراً من العناية في حديثة عن مقاصد القرآن، وقد تضمن كتابه «الوحي المحمّدي» بياناً مفصلاً لهذه المقاصد. فجاء حديثه شاملاً جامعاً كل ما ذكره العلماء من قبل، وقد جعل أهداف القرآن وغاياته في عشرة مقاصد رئيسة شاملة[٢]:

المقصد الأول: بيان أركان الدين: التوحيد، والبعث والجزاء، والعمل الصالح.

الثاني: بيان شؤون النبوّة والرسالة ووظائف الرسل.

الثالث: بيان أن الإسلام دين الفطرة السليمة، والعقل، والفكر، والعلم، والحكمة، والفقه، والبرهان، والحجّة، والضمير، والوجدان، والحرية، والاستقلال.

الرابع: بيان الإصلاح الإنساني الاجتماعي السياسي الوطني بالوحدات الثمان: وحدة الأمة، وحدة الجنس البشري، وحدة الدين، وحدة التشريع بالمساواة في العدل، وحدة الأخوّة الروحية والمساواة في التعبّد، وحدة الجنسية السياسية الدولية، وحدة القضاء، وحدة اللغة.

الخامس: بيان مزايا الإسلام العامة في التكاليف الواجبة والمحظورة.

السادس: بيان حكم الإسلام السياسي الدولي: نوعه، وأساسه، وأصوله العامة.

السابع: بيان الإصلاح المالي.

الثامن: إصلاح نظام الحرب ودفع مفاسدها وفلسفتها.

التاسع: إعطاء النساء جميع الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية.

العاشر: بيان هداية الإسلام في تحرير الرقّ.

ويمكن إجمال هذه المقاصد في أمرين.

---

(٢) انظر: محمد رشيد رضا، الوحي المحمدي (١٩٧٩)، المكتب الإسلامي، بيروت. ص: ١٦٨–٣٤٠، تفسير المنار، ج٥، ص: ١٤٤. ج٧، ص: ١٣٨–١٤٣. ج١١، ص: ٢٠٧–٢٩٢.

- الأول: بيان التصور الحق لله الخالق، والكون الدال على خالقه، والإنسان الخليفة. وهذا مما سبق العلماء إلى بيانه بصورة إجمالية.
- والثاني: عمارة الأرض وسياسة الحياة في ميادينها المختلفة بنظام الشرع وهدايته بعد الوقوف على سنن الله في الأمم والمجتمعات، وسننه تعالى في عالم الكون. وجاء هذا التفصيل في عرض مقاصد القرآن استجابة قوية لمواجهة التحديات التي أثقلت كاهل الامة في المعترك الحضاري المعاصر. وتمثل هذه المقاصد غاية ما تطمح الإنسانية إلى تحقيقه في واقع الحياة، وهي مقاصد جديرة بذلك؛ لأنها منبثقة من وحي الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إلى نبيه ﷺ. لكن تبقى مشكلة تحقيق هذه المقاصد بعد تحديدها والتنظير لها، وقد تفاوت العلماء في ذلك.

أقول: هذا الذي يجب بيانه لأمم الأرض من خلال تفسير القرآن، وهو واجب يتحتم على المفسرين أداؤه على خير وجه، فلقد أخذ الله العهد والميثاق على الذين أوتوا الكتاب أن يبيّنوه للناس ولا يكتموا منه شيئاً: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ (آل عمران: ١٨٧) بمعنى «أن يوضّحوا معانيه كما هي، ولا يؤوّلوه، ولا يحرّفوه عن مواضعه التي وضع لتقريرها، ومقاصده التي أنزل لأجلها؛ حتى لا يقع في فهمه لبس ولا اضطراب»[٣].

ونجد في تفسير المنار تحذيراً من فعل أهل الكتاب هذا، وذلك بجعل تبيين الكتاب من أهم واجبات المفسّر، وعدم الاشتغال بظاهره والغفلة عن مقاصده التي أنزل من أجلها، فيقول مؤيّداً كلام أستاذه: «إن كتابنا – وهو القرآن العزيز – لم يوجد كتاب في الدنيا حفظ كما حفظ، ونقل كما نقل، ونشر كما نشر، فإن الجماهير من المسلمين قد حفظوه عن ظهر قلب، من القرن الأول إلى هذا اليوم، وهم يتلونه في كل مكان، حتى إنك تسمعه في الشوارع والأسواق ومجتمعات الأفراح والأحزان، وفي كل حال من الأحوال، ولكنهم تركوا تبيينه للناس، فلم يغن عنهم عدم الكتمان شيئاً، فإنهم فقدوا هدايته، حتى إنهم يعترفون – أهل الكتاب

(٣) رضا، تفسير المنار، ج٤، ص: ٢٧٩.

– بأن المسلمين أنفسهم منحرفون عنه، وأن القابض على دينه كالقابض على الجمر، ويعترفون بأن الغش قد عمّ وطم، ويعترفون بارتفاع الأمانة، وشيوع الخيانة إلخ... وكل هذا من نتائج ترك التبيين. ولهذه التعمية وهذا الاضطراب في فهم الكتاب أسباب، أهمها: ما كان من الخلاف بين العلماء من قبل، لا سيما في القرن الثالث، فقد انقسمت الأمة إلى شيع، وذهبوا في الخلاف مذاهب في الأصول والفروع، وصار كل فريق ينصر مذهبه، ويحتج بالكتاب، يأخذ ما وافقه منه، ويؤول ما خالفه، واتّبعهم الناس على ذلك»[٤]. حتى أصبح همّ المفسّر نصرة قواعد وأسس مذهبه، غافلاً بذلك عن مقاصد القرآن وغاياته السامية وشمول خطابه لعموم أفراد البشر، وكأنه ليس على وجه الأرض إلا حفنة من معتزلة وخوارج وشيعة وأشاعرة. لقد أضرّت المذهبية – على هذا الوجه – بمقاصد القرآن كثيراً، فاشتغل التفسير بها، ولم يتأطّر بالمقاصد.

لقد اتّسمت دعوة الشيخ رشيد إلى نبذ الاختلاف بالوعي والاتزان والمنهجية، وحفل تفسير المنار بنداءات كثيرة داعية إلى هذا الغرض، والاستجابة لهدي القرآن الكريم بالتوجّه إلى مقاصده، فبمناسبة تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ (البقرة: ٢٠٨) بيّن أن الإيمان لا ينفع إذا استمر العداء والتفرّق في الدين، فدين الله جامع لا تفرّق فيه، ويجب الأخذ بالإسلام بكماله وتمامه، لا أن يأخذ كل واحد بكلمة أو سنّة ويجعلها حجّة على الآخر، وإن أدّت إلى ما يخالفها من النصوص والسنن، وحملها على النسخ أو المسخ بالتأويل، أو تحكيم الاحتمال بلا حجّة ولا دليل... وهذه الآية نعي على الذين جعلوا القرآن عضين[٥].

وقد رأى في اهتمامات المفسرين باتجاهاتهم المتعددة واختلافاتهم التي لا طائل تحتها نوعاً من الابتعاد عن مقاصد القرآن، ويذهب بهم في مذاهب تنسيهم معناه الحقيقي[٦]. يقول: إن السعادة كل السعادة بطلب هداية القرآن

(٤) رضا، تفسير المنار، ج٤، ص: ٢٧٩–٢٨٠.
(٥) المرجع السابق نفسه، ج٢، ص: ٢٥٦–٢٥٧.
(٦) نفسه، ج١، ص: ١٧–١٨.

الكريم دون الاشتغال بغيره من العلوم، كعلم الكلام[٧]. وإن القاعدة المقررة في القرآن أن الإيمان الصحيح ودين الحق سبب لسعادة الدنيا ونعمتها بالحق والاستحقاق[٨]. وهذا ما ينبغي أن يتوجه إليه علم التفسير.

ويتفق الشيخ رشيد مع أستاذيه الأفغاني وعبده في وجوب التوجّه إلى تحقيق مقاصد القرآن من خلال التفسير، وتراه مهتماً كثيراً بمنهج العروة الوثقى الذي يتلخص في ثلاثة أمور كما ذكر في مقدمة التفسير:

«**أولها:** بيان سنن الله في الخلق، ونظام الاجتماع البشري، وأسباب ترقّي الأمم وتدلّيها، وقوتها وضعفها*.

ثانيها: بيان أن الإسلام دين سيادة وسلطان، جمع بين سعادة الدنيا وسعادة الآخرة، ومقتضى ذلك أنه دين روحاني اجتماعي ومدني عسكري، وأن القوّة الحربية فيه لأجل المحافظة على الشريعة العادلة، والهداية العامّة، وعزّة الملّة، لا لأجل الإكراه على الدين بالقوة.

وثالثها: أن المسلمين ليس لهم جنسية إلا دينهم، فهم إخوة لا يجوز أن يفرقهم نسب ولا لغة ولا حكومة»[٩].

وتراه في تفسير المنار يحاول تحقيق هذا المنهج، ويحرص على تجاوز

---

(٧) نفسه، انظر: ج٧، ص: ٦٢٠.

(٨) نفسه، ج٩، ص: ٢٤.

(*) يرى بعضهم أن الشيخ رشيد رضا قد أكثر وفصّل في حديثه عن السنن الإلهية، وقد أورد دليل موضوعات السنن الإلهية في تفسيره، مسوغاً له ذلك التفصيل بقوله: «وعذر الشيخ رشيد في الإكثار من هذه الموضوعات هو حالة العصر الذي عاش فيه؛ فقد كان المسلمون في بوادر نهضة، وأراد هو أن يسهم في هذه النهضة من جهة، وأن يجعلها تسير على أساس من هدي الإسلام، ولا تنجرف مع تيار الغرب من جهة أخرى». عبدالله شحاته؛ منهج الإمام محمد عبده في التفسير (بلا تاريخ) المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة. ص:٢٤٨. قلت: وهذا وحده مسوّغ مهم يستدعي مزيداً من التفصيل والبيان، لا أن ينتقد عليه طول حديثه عن السنن الإلهية.

(٩) تفسير المنارو ج١، ص: ١١.

أزمات المفسرين مع النص القرآني، وتضمن كل جزء من تفسير المنار توضيحات وبيانات لهذه المقاصد القرآنية، خاصة فيما يتعلق بالسنن الإلهية، وبيان دعائم الحضارة الإسلامية التي شيدتها «خير أمة أخرجت للناس». أقول: لقد بذل جهداً كبيراً للتخلّص من معوّقات فهم القرآن لبلورة المقاصد القرآنية من بينها: التوسع في الإعراب، وتتبع القصص من كتب الإسرائيليات، والتوسّع في الأحكام الشرعية، وكثرة الكلام في أصول العقائد ومقارعة الزائغين، والإغراق في غريب القرآن، والمواعظ والدقائق الممزوجة بحكايات المتصوّفة والعبّاد، وكذلك التفسير الإشاري، على ما سيأتي بيانه. وقد نبّه بعض الباحثين إلى هذا، وجعله أساساً من أسس التفسير عنده، أعني: التحذير من الإطناب[١٠].

أقول: لقد نحى الشيخ محمد رشيد رضا في التفسير منحى المفسرين السابقين من حيث استعراضه تفسير سور القرآن سورة سورة، على حسب ترتيبها في المصحف، واستعراض الآيات في السورة الواحدة آية آية، ولم يتميز عن المفسرين في هذا المنهج، لكن الشيء الذي قد تميز به طبيعة القضايا التي حاول توجيه التفسير إليها، والموضوعات التي أراد من المسلم المعاصر أن يكون منها على وعي وبصيرة، هذه القضايا والموضوعات كانت أقرب ما يكون إلى مقاصد القرآن الكريم.

---

(١٠) انظر: فهد الرومي؛ اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر (١٩٩٧)، مؤسسة الرسالة، بيروت. ج٢، ص: ٧٧٢. وانظر: فهد الرومي، منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير (١٤١٤هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت. ص: ٢٥٣.

المبحث الثاني
مراجعة جهود المفسرين السابقين

خطت مدرسة المنار خطوات مهمة باتجاهات متكاملة نحو تفسير القرآن الكريم، اتجهت الخطوة الأولى نحو الماضي، لتقوم بمراجعة شاملة لجهود العلماء واجتهاداتهم في التفسير، وذلك لتحقيق هدفين اثنين.

أولهما: تنقية التفسير من كل ما علق به، وحال دون وصول هداية القرآن إلى قلوب الناس، وهو ما سمّته بـ «الصوارف، أو الشواغل، أو الحجب»[١١] التي تمنع القارىء من تفهّم هداية القرآن الكريم. إن عملية النقد هذه كانت واحدة من خطوات منهج الشيخ رشيد رضا المهمّة لتصحيح مسار علم تفسير القرآن، وتقريبه من واقع الأمة وهمومها.

وثانيهما: البناء على ما سبق بيانه من قبل العلماء مما يستقيم ومتطلبات العصر، فيجد القارىء في تفسير المنار كثيراً من النصوص المقتبسة من أقوالهم، هذه النصوص حرص صاحب المنار على استثمارها وتوظيفها في محاولة – صادقة اللهجة – للنهضة بالأمة نحو تحقيق شهودها الحضاري. لقد اقتبس من أعلام الفكر الإسلامي، أمثال: الغزالي، وابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير، وابن خلدون... وغيرهم.

والخطوة الثانية اتجهت إلى الأمام، إلى النص القرآني نفسه، وإلى واقع الأمة ومشكلاتها وقضاياها، والبحث في أسباب تخلّفها من منظور القرآن الكريم وهدياته... بهدف استئصال الداء العضال الذي أقعدها عن أهم واجباتها. ومثّلت هذه الخطوة محاولة جادّة لإنقاذ الأمة والنهضة بها إلى مستوى يكون محققاً لمقاصد الخطاب القرآني، بغض النظر عن مبلغ النجاح الذي حققته، وبغض النظر عن الطريق الذي سلكه لتحقيق هذا الهدف. وعليه، فالميدان الذي حظي بعملية النقد والمراجعة يشمل التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي:

---

(١١) رضا، تفسير المنار، ج١، ص: ٧.

أ – التفسير بالمأثور:

أخذ الشيخ محمد رشيد على منهج التفسير بالمأثور إيغاله وإسرافه في الاعتماد على الرواية على حساب العقل والنظر والاجتهاد، مما أورث انعكاسات سلبية على فهم القرآن الكريم، فيقول «أكثر ما روي في التفسير المأثور أو كثيره حجاب على القرآن وشاغل لتاليه عن مقاصده العالية المزكية للأنفس، المنوّرة للعقول، فالمفضّلون للتفسير المأثور لهم شاغل عن مقاصد القرآن بكثرة الروايات التي لا قيمة لها سنداً ولا موضوعاً. فالصحيح من التفسير بالمأثور قليل، كما أن المفضّلين لسائر التفاسير – التفسير بالرأي – لهم صوارف أخرى عنه[١٢].

ويبين الشيخ الأعراض السيئة التي تنجم عن انشغال المفسّر بالروايات التي لا يعرف سندها، ويقرر أن ضعف التأمل وعدم إدراك الحكم القرآنية كان لأنهم – المفسّرون – اعتادوا أن يطلبوا معانيه من الروايات التي لم تثبت...[١٣]. وهذا الكلام صحيح؛ لأن المفسّر بسبب انشغاله بتلك الروايات لا يفسح المجال لعقله أن يتأمل أو يتدبر أو يتفكر، فتكون الرواية أسبق إلى الذهن فتتقرر فيه بموضوعها، ومن ثم ينساق المفسر وراءها. وهذا يعني أنه كان للرواية – بغض النظر عن قيمتها – سلطان وهيمنة على نفسية المفسر، أورثا احتراماً وإجلالاً لها، ومن ثم دفع إلى عدم التخلي عنها.

أقول: هذا الحال كان موضع نقد شديد من قبل صاحب المنار؛ ولذلك حثّ على تفعيل منهج نقد المتن الذي ظهر في وقت مبكر من تاريخنا الإسلامي، أي: في عصر الصحابة أنفسهم. وذهب – مع من ذهب – إلى رفض كل حديث مخالف للنص القرآني، قال: «إنني لا أعتقد صحة سند حديث، ولا قول عالم صحابي يخالف ظاهر القرآن، وإن وثّقوا رجاله، فربّ راوٍ يوثق للاغترار بظاهر حاله، وهو سيىء الباطن، ولو انتقدت الروايات من جهة فحوى متنها كما تنتقد

---

(١٢) رضا، تفسير المنار، انظر: ج١، ص: ٧–١٠.
(١٣) نفسه، ج١٢، ص: ٣٢–٣٣.

من جهة سندها لقضت المتون على كثير من الأسانيد بالنقض[١٤]. وبمعنى آخر إنه يدعو إلى التوسع في منهج نقد المتن، لتخليص التفسير من الكمّ الكبير من الرواية التي لا تستقيم مع الهداية القرآنية ومقاصدها.

الرواية الإسرائيلية:

وأكبر معوّق في فهم القرآن الكريم: ذلك النوع من الرواية الذي غلب عليه الطابع الإسرائيلي، والذي واجه عملية نقد ساخطة، شنها الشيخ وأستاذه محمد عبده عليه، وعلى المفسرين الذين فسحوا المجال لها في تفاسيرهم. وذهب إلى تكذيبها، وتكذيب من يرويها، وتسفيه من ينقلها. وكانت حملته هذه بهدف تنقية التفسير من الإسرائيليات بسبب تشويهها له[١٥]. ويقرر وجوب عدم الاعتماد عليها، قال: وفي التفسير المأثور روايات إسرائيلية الأصل، لا يعتمد عليها، ولا يحتج بشيء منها[١٦].

وعلى سبيل المثال، فقد شنّع على المفسرين خرافاتهم فيما أوردوه من روايات إسرائيلية في الخسف بقوم لوط، وأن جبريل عليه السلام قلع قراهم من تخوم الأرض بجناحه، وصعد بها عنان السماء حتى سمع أهل السماء أصوات الكلاب والدّجاج فيها، ثم قلبها قلباً مستوياً فجعل عاليها سافلها[١٧].

وذكر أنه مع وجود هذه الروايات الرائجة عند كثير من علماء التفسير والتاريخ قلّ من صرّح ببطلانها، ثم هم لم يطّلعوا على ما عند أهل الكتاب، إذ لم يقفوا عند ما بيّنه القرآن الكريم، ويبين الشيخ رشيد أن العبرة في هذه الروايات أن لو كان القرآن متأثراً بكلام أهل الكتاب لظهر هذا التأثر في حديث القرآن عنهم[١٨].

---

(١٤) نفسه، ج٣، ص: ١٤١.
(١٥) نفسه، ج١١، ص: ٤٧٤.
(١٦) نفسه، ج٨، ص: ٤٩٨. وانظر: ج١، ص: ٨-١٠، وانظر: ج٨، ص: ٣٥٦.
(١٧) نفسه، ج١٢، ص: ١٣٨.
(١٨) نفسه، ج٧، ص: ٣٣٢-٣٣٣.

إن عملية النقد الشديدة للإسرائيليات لم تتم لمجرد أنها لا تتوافر فيها شروط الصحة، أو أن رواتها غير موثقين فحسب، بل للأخطار المدمرة المترتبة على اعتناق تلك المعلومات الإسرائيلية التي أضعفت العقل المسلم، وأشغلته عن إدراك حقيقة الهدي القرآني الذي يقرر أسس التحضر المدني والرقيّ المادي والسموّ الروحي، بل غاب كثير من هذه الأسس وراء ذلك الكمّ من الإسرائيليات. وعلم التفسير غني عن كل تلك الروايات والمعلومات الكتابية، لخطئها أولاً، ولعدم جدواها ثانياً. هذا الذي يتقرر في فكر صاحب المنار وهو يسلط جام غضبه على هذا الوضع.

وفي التعقيب على واحدة من الروايات الإسرائيلية الزاعمة أن الرعد صوت ملك يسوق السحاب بعصاه، قال: «لا يجوز صرف الألفاظ عن معانيها الحقيقية إلا بدليل صحيح، ولا سيما إذا صرفت عن معاني من عالم الشهادة الذي يعرفه الواضعون والمتكلمون إلى معاني من عالم الغيب لا يعلمها إلا الله تعالى، ومن أعلمهم الله تعالى إيّاها بالوحي... إنه لا يجوز إلحاق شيء بالوحي غير ما تدل عليه ألفاظه وأساليبه، إلا ما ثبت بالوحي عن المعصوم الذي جاء به ثبوتاً لا يخالطه الريب»[١٩].

وهناك قضية أحب الشيخ أن يجلّيها، فقد أخذ عليه نقله للإسرائيليات[٢٠]، وهو بالفعل كان ينقل الإسرائيليات، ولكن لم يكن يهدف أبداً إلى جعلها مادة تفسيرية، كيف وهو يعلم مبلغ تأثيرها على العقلية المسلمة عامّة! لقد كانت وجهة نظر الشيخ أن من يريد الإسرائيليات فليرجع إلى كتب أهل الكتاب، ليرى أن ما شاع في بيئتنا غير ما ذكروه هم في كتبهم. والحاصل أنه لا يؤخذ بشيء مما قالوا، وقد قل عند الصحابة النقل عنهم، وكثر عند التابعين. وكلما

---

(١٩) نفسه، ج٨، ص: ١٧٤-١٧٥.

(٢٠) انظر: محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون (١٩٧٦)، دار الكتب الحديثة، بيروت، ج٢، ص: ٥٨٨. وانظر: فهد الرومي، اتجاهات التفسير، مرجع سابق، ج٢، ص: ٧٥٩-٧٦٠. ومنهج المدرسة العقلية، مرجع سابق، ص: ٣١٩-٣٥٥.

قلّ العلماء الواسعي الاطّلاع ازداد النقل عنهم[٢١]. فالشيخ رشيد رضا – رحمه الله – يستشهد بالإسرائليات حتى يبين أن ما راج في كتب التفسير مروي في التوراة غيره، والمعلومات الإسرائيلية التي دخلت إلى تراثنا التفسيري معلومات كاذبة، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿إن فيها قوماً جبارين﴾ ذكر ما ورد في كتب التفسير، ثم ذكر القصة، وبيّن أن أصلها في الفصل ١٣، ١٤ من سفر العدد من التوراة، ثم قال: فأنت ترى أنه ليس في الرواية المعتمدة عند بني إسرائيل تلك الخرافات التي بثّوها في كتاب المسلمين في العصر الأول، وإنما فيها من المبالغة أنهم لخوفهم ورعبهم من الجبارين احتقروا أنفسهم حتى رأوها كالجراد، واعتقدوا أن الجبارين رأوهم كذلك...[٢٢].

ب – التفسير بالرأي:

يعرض الشيخ رشيد نماذج من أخطاء المفسرين بالرأي سعياً إلى تقويم منهج التعامل مع القرآن الكريم، فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ (هود: ١١٣) بيّن خطأ من اعتمد على الرواية من المفسرين، وأقواها ما روي عن ابن عباس، وهو الركون إلى الشرك كما في تفسير الطبري الذي قال في معناها: «ولا تميلوا أيها الناس إلى قول هؤلاء الذين كفروا بالله، فتقبلوا منهم، وترضوا عن أعمالهم، فتمسكم النار». وكذلك قال البغوي وابن كثير، ورأى الشيخ رشيد أن هذا القول لا يؤدي إلى معنى محكم للآية.

وبيّن خطأ الجصاص الحنفي الذي تقتضي الآية عنده النهي عن مجالسة الظالمين ومؤانستهم والإنصات إليهم.

ويخطّيء الزمخشري الذي قال في معناها: «والنهي متناول للانحطاط في هواهم، والانقطاع إليهم، ومصاحبتهم، ومجالستهم، وزيارتهم، ومداهنتهم والرضا بأعمالهم، والتشبه بهم، والتزيّي بزيّهم، ومدّ العين إلى زهرتهم، وذكرهم

(٢١) رضا، تفسير المنار، ج٨، ص: ٣٥٥.
(٢٢) نفسه، انظر: ج٦، ص: ٢٣٢.

بما فيه تعظيم لهم». يقول الشيخ رشيد: كل ما أدغمه في النهي عن الركون إلى الذين ظلموا قبيح في نفسه، لا ينبغي للمؤمن اجتراحه، وقد يكون من لوازم الركون الحقيرة، ولكن لا يصح أن يجعل شيء منه تفسيراً للآية مراداً منها.

قال: «ومن تأمل أقوال من جاء من بعد الزمخشري، مثل ابن العربي، والقرطبي، والطوسي، والرازي، والبيضاوي، والنسفي، وأبي السعود، والآلوسي... في تفسير الآية يرى أنهم كلهم قلّدوه فيما فسّر به الركون، وهو غلط منه؛ لأنه مشتق من الركون وهو الجانب القوي من البناء ومن كل شيء، فمعنى الركون إليهم الاستناد والاعتماد على ولايتهم ونصرهم. وخطّأ الزمخشري أيضاً الشوكاني وصدّيق حسن خان»(٢٣).

فتفسير معنى الركون بالشرك – على ما تقتضيه الرواية – مرفوض لدى الشيخ رشيد؛ إذ لا يستساغ أن يتنزل الخطاب للمؤمنين لينهاهم عن شيء قد وعوه وأدركوه وبذلوا النفس والنفيس من أجل النجاة منه، أعني: الشرك والوثنية، فكيف يميل المؤمن إلى مداهنة الكافر وقبول الكفر منه، أو الرضى عن أعماله، إن من يفعل ذلك ليس حقيقاً بحمل وسام الإيمان.

وأما الذين اعتمدوا على ظاهر اللغة فلم يقبل الشيخ رشيد تفسيرهم؛ لأنهم حملوا الركون على بعض لوازمه، أو على ما هو أعمّ منه، والأولى حمله على معناه الحقيقي الذي قررته اللغة وهو – على ما حققه –: الاستناد والاعتماد على ولايتهم...

إن المعاني التي قررها المفسرون لا تنسجم – في نظر العقل – مع طريقة التعامل مع الآخر، لأنه سيكون على حساب الأصول والثوابت الإيمانية ومفهوم الولاء والبراء، فكيف ينسجم الخطاب لمن رسخ الإيمان في قلبه؟ ذلك حين يفسّر الركون بمعنى اتخاذهم ذخراً وسنداً يستنصر بهم في الملمّات... فهذا هو الشرك بعينه؛ لأن القرآن يدعو إلى التحصّن بحصن الإيمان والتوكل

---

(٢٣) نفسه، ج١٢، ص: ١٧٣–١٧٩.

على الله، والاستقلالية والاعتماد على الذات في تصريف الأمور. إن الآية تحتاج أن تفهم في ظل التعامل مع الآخر، لا في ظل الانقطاع عنه، ولا في ظلّ العزلة والقطيعة معه على ما ذكر في بعض الأقوال.

التفسير بالاصطلاحات المحدثة:

ورفض تفسير القرآن بالاصطلاحات المحدثة أمر شاع التحذير منه في تفسير المنار؛ لأن فيه ابتعاداً عن المعاني المرادة لتحقيق مقاصد القرآن، ولأن فيه تعريض معاني القرآن نفسها لمشكلات المصطلحات الفنية، ومن الأمثلة على ذلك تفسير قوله تعالى: ﴿بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله﴾ أي: ولم يأتهم إلى الآن ما يؤول إليه ويكون مصداقاً له بالفعل، وإتيانه متوقع بل آت لا بدّ منه. وقد خبط المفسرون الفنيون في معنى هذا التأويل منذ القرون الوسطى؛ لأنهم لم يفهموا القرآن بلغته الحرة الفصحى، بل بلغة اصطلاحاتهم الفنية، ولا سيما أصول الفقه والكلام، فقال بعضهم: إنهم كذبوا بما لم يفهموا معناه، وقال بعضهم: إنهم كذبوا بما لم يظهر لهم وجه الإعجاز فيه، ولو صحّ هذا أو ذاك لكانوا معذورين بالتكذيب طبعاً. وسبب مثل هذا الغلط جعلهم التأويل تارة بمعناه عند بعض المفسرين، وهو رديف التفسير، وتارة بمعناه عند المتكلمين والأصوليين، وهو صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله في اللغة بشرط موافقته للشرع، لتخرج تأويلات الباطنية وغلاة الصوفية»[٢٤].

فهذان سببان رئيسان من جملة الأسباب التي أوقعت المفسرين في خطأ التفسير، أعني: الاعتماد على الرواية والوقوع في أسرها. وتفسير القرآن بالاصطلاحات المحدثة. يقرر الشيخ رشيد هذا موضحاً أن سبب غفلة أذكياء المفسرين اقتصارهم في أخذ التفسير على الروايات المأثورة، ومدلول الألفاظ في اللغة، أو في عرف الفقهاء والأصوليين المتكلمين الذي حدث بعد نزول القرآن بزمن طويل، ولا يغني شيء من ذلك عن الاستعانة على فهم الآيات الواردة في

(٢٤) نفسه، ج١١، ص:٣٧٣-٣٧٤.

شؤون البشر بمعرفة الملل والنحل وتاريخ أهلها وما كانوا عليه في عصر التنزيل. وقد كان من أثر تقصير المفسرين وعلماء العقائد والأحكام في أهم ما يتوقف عليه فهم المراد من أمثال هذه الآيات أن وقع كثير من المسلمين فيما كان عليه أولئك الضالّون من مشركي العرب وغيرهم، حتى الذبح لبعض الصالحين، وتسييب السوائب لهم، كعجل البدوي المشهور أمره في أرياف مصر(٢٥).

تحكيم المذاهب النحوية في القرآن:

وشمل النقد أيضاً مجالاً آخر من مجالات التفسير بالرأي يرجع إلى توظف علم النحو في خدمة تفسير القرآن وفهمه. وهو من المجالات التي أدّت المبالغة فيها إلى خطأ ثالث في منهج التعامل مع القرآن الكريم، ذلك أن تفسير القرآن على أساس تحكيم قواعد النحو في نصوص القرآن الكريم حال دون فهم واع لآياته الكريمة. هذا الصنيع كان إفرازاً للاختلاف بين المدارس النحوية. وقد بدا نقد هذا الوضع قوياً على لسان الأستاذ الإمام محمد عبده، وظل الشيخ رشيد على النهج نفسه. يقول الأستاذ الإمام: «إن تحكيم مذاهبهم النحوية في القرآن ومحاولة تطبيقه عليها وإن أخلّ ذلك ببلاغته – جرأة كبيرة على الله، وإذا كان النحو وجد لمثل ذلك فليته لم يوجد(٢٦).

ويردّ على النحاة في قولهم: «إن الباء الداخلة على لفظ الجلالة في قوله: ﴿وكفى بالله﴾ زائدة، أو أن الفاعل مصدر محذوف والباء حرف جر أصلي متعلق به، ويرى أن هذا كله من تنزيل القرآن على القواعد التي وضعوها، يقول الشيخ رشيد: «ونحن نقول: إن المعنى مع وجود الباء هو غير المعنى مع عدمها، فلها معنى في الكلام كيفما أعربت، وإن «كفى» فعل ليس له فاعل، والجار متعلق بهو ومعناه: أن الله تعالى هو أشدّ من يراقب ويحاسب. وهذه الجملة من فرائد البلاغة المسموعة التي لا تحتذى، ولا يؤتى بمثل لها، قد

(٢٥) نفسه، ج٨، ص:١٨، وانظر: ص١٨٧.
(٢٦) نفسه، ج٣، ص: ٤٨.

جاءت على هذه الكيفية النادر مثلها في حسنها، فلا يمكن تطبيقها على القواعد الموضوعة للكلام... إن القواعد النحوية ونحوها – كقواعد البيان – وضعت بعد وضع اللغة لا قبلها، فلا يمكن أن تكون عامّة شاملة لكل كلام، ولكن النحاة حاولوا إدخال كل الكلام في قواعدهم، وكان يجب أن يقولوا كما قال بعض أهل اللغة في بعض الكلام النادر الاستعمال: إنه ورد هكذا على غير القاعدة التي وضعناها، فهو نظام سماعي يحفظ في اللغة ولا يقاس عليه. ويقرر أن لا زيادة في أحرفه[٢٧].

ويعلّق على اللغويين من المفسرين الذين يقولون: إن الراسخين في العلم لا يعلمون المتشابه ويصفهم بالتناقض؛ لأنهم يتكلمون في معنى المتشابه ويتوسّعون في القول في ذلك، حتى ما منهم من أحد إلا قد قال في ذلك أقوالاً لم يسبق إليها، وهي خطأ[٢٨]. فكيف لا يعلم الراسخون في العلم المتشابه، وقد قالوا في معناه كثيراً من الأقوال، بل يندر أن تجد مفسراً لا يتكلم في معناه!

الانتصار للمذاهب الفقهية:

وكما تجاوز النحاة توظيف علم النحو لخدمة تفسير القرآن إلى وضع حاول فيه النحوي الانتصار للرأي الذي تقرر في مذهبه فتعرضوا للنقد الشديد، فإن الفقهاء الذين تجاوزوا الحد بانتصارهم لمذاهبهم الفقهية على حساب فهم النص القرآني تعرضوا لنقد أشد من قبل الشيخ رشيد رضا وشيخه الأستاذ الإمام، فبمناسبة تفسير قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ (البقرة: ٢٦٩). يعرض بالمقلّدين من الفقهاء قائلاً: «الآية بإطلاقها رافعة لشأن الحكمة بأوسع معانيها، هادية إلى استعمال العقل في أشرف ما خلق له. ومن رزيء بالتقليد كان محروماً من

(٢٧) نفسه، ج٤، ص: ٣٩٢، ج١، ص: ٤٦–٤٧.

(٢٨) نفسه، ج٣، ص: ١٨٦–١٨٧. قد لا يستدعي الأمر وصفهم بالتناقض؛ لأن معرفة المتشابه هي غير معرفة تأويله.

ثمرة العقل وهي الحكمة، ومحروماً من الخير الكثير الذي أوجبه الله لصاحب الحكمة بقوله: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ فيكون كالكرة تتقاذفه وسوسة شياطين الجن، وجهالة شياطين الإنس، يتوهم أنه قد يستغني بعقول الناس عن عقله، وبفقه الناس عن فقه القرآن، بدعوى أنه جمع كل ما أوجبه القرآن مع زيادة في البيان»[٢٩].

ويرفض مبدأ القائلين بمعضلات القرآن عند بعض المفسرين بالرأي من الفقهاء، فعند قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ (النساء: ٤٣) بيّن الأستاذ الإمام ووافقه الشيخ رشيد في – فهم لم يسبق إليه – أن حكم المريض والمسافر إذا اراد الصلاة كحكم المحدث حدثاً أصغر أو ملامس النساء ولم يجد الماء، فعلى كل هؤلاء التيمم فقط. هذا ما يفهمه القاريء من الآية نفسها، إذا لم يكلف نفسه حملها على مذهب من وراء القرآن يجعلها بالتكلّف حجة له منطبقة عليه. قال الأستاذ الإمام: لقد طالعت في تفسيرها خمسة وعشرين تفسيرا فلم أجد فيها غناء، ولا رأيت قولاً فيها يسلم من التكلّف. ثم رجعت إلى المصحف وهذه الآية فوجدت المعنى واضحاً نقياً. قال الشيخ رشيد: وإذا كان رحمه الله قد راجع خمسة وعشرين تفسيراً رجاء أن يجد فيها قولاً لا تكلُّفَ فيه، فأنا لم أراجع – عند كتابة تفسيرها – إلا روح المعاني، وهو آخر التفاسير المتداولة تأليفاً، وصاحبه واسع الاطلاع، فإذا به يقول «الآية من معضلات القرآن» ووالله إن الآية ليست معضلة ولا مشكلة، وليس في القرآن معضلات إلا عند المفتونين بالروايات والاصطلاحات، وعند من اتخذوا المذاهب المحدثة بعد القرآن أصولاً للدين يعرضون القرآن عليها عرضاً، فإذا وافقها بغير تكلُّفٍ أو بتكلف قليل فرحوا، وإلا عدّوها من المشكلات والمعضلات[٣٠].

---

(٢٩) نفسه، ج٣، ص:٧٦، ٣٢٧. وانظر: ج١٠، ص: ٣٦٧.

(٣٠) نفسه، ج٥، ص: ١١٩–١٢٠.

ومن المآخذ على الفقهاء – في منظور الشيخ –: توسّعهم الكبير في الاستنباط على وجه يقرر تعسير الفقه مع يسر الدين، وبمناسبة تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ (الأعراف: ٤٢)، بيّن أن النصوص القطعية في يسر الدين وسهولته تعدّ حجّة قطعية على ما أحدثه المتوسعون في الاستنباط والاجتهاد في أحكام العبادات التي جعلوها حملاً ثقيلاً يعسر تعلمه، ولا يدخل في وسع أحد عمله، حتى إن أحكام الطهارة وحدها لا يمكن تلقّي ما كتبوه فيها إلا في عدة أشهر(٣١).

إن التوسع في الاستبناط – بوجه عام – ليس معيباً بحد ذاته، ولا يقصد الشيخ رشيد أن يعيب هذا المنحى؛ لأنه يؤكد أن التوسع في الاستنباط من القرآن الغرض منه التفقه في معاني القرآن والاهتداء به، بشرط أن لا يشغل القاريء عن مقاصده، فالتوسُّع مشروط وهادف إذا قصد منه بيان معاني التنزيل، وبناء على هذا فإن الشيخ رشيد لا يرى في المعاني العديدة التي استنبطها ابن القيم في تفسير الفاتحة في كتابه مدارج السالكين تفسيراً للقرآن، وإن كانت تزيد القاريء ديناً وإيماناً وتقوى، إلا أنه لا يصح أن يسمى شيء منها تفسيراً للفاتحة(٣٢).

أقول: يأتي إشكال التوسّع في الاستنباط من حيث اقتصاره – في الأعم الأغلب – على فقه الأفراد أو الفقه الفردي الذي يعالج شؤون المسلم الخاصة في مجال العبادات والمعاملات. ومصنفات الفقه في تراثنا الإسلامي دوّنت بمعزل عن فقه آخر هو فقه الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية الواقعية، ففقهنا في العبادات توسّع وتضخم، في حين أن فقهنا الآخر المتصل بالواقع على اختلاف ميادينه ومجالاته تقلّص وانحسر.

ويعيب على المفسرين اختلافهم حتى في بدهيات المسائل الفقهية التي يفهمها العوام من الناس. وأورد على ذلك مسألة الهجر في المضاجع، فإذا قلت

---

(٣١) نفسه، ج٨، ص: ٤٢٠–٤٢١، ٤٢٩، وص: ١٥٨.
(٣٢) نفسه، ج١، ص: ١٠١–١٠٢.

لأي عامي: إن فلاناً يهجر امرأته في المضجع، أو في محل الاضطجاع أو في المرقد أو محل النوم، فإنه يفهم المراد من قولك. قال: ولكن المفسرين رأوا العبارة محلاً لاختلاف أفهامهم، فمنهم من صرّح بما يراد من الكناية، وأخلّ بما قصد في الكتاب من النزاهة، ومنهم من قال: اهجروا حُجرهن التي هي محل مبيتهن، ومنهم من قال: المراد: اهجروهن بسبب المضاجع، أي: بسبب عصيانهن إياكم فيها. وقال بعض من فسّر الهجر بالتقييد بالهجار: قيّدوهن لأجل الإكراه على ماتمنعن عنه(٣٣).

ويبين المشكلات التي وقع فيها المفسرون بالرأي في فهم آيات المتشابه، ويذكر أن منشأ الخطأ هو أنهم جعلوا التأويل على معناه الاصطلاحي، وإن تفسير كلمات القرآن بالمواضعات الاصطلاحية قد كان منشأ غلط يصعب حصره(٣٤).

ويبيّن الشيخ رشيد خطأ آخر يتداخل مع جملة الأخطاء والمآخذ التي سجلها على المفسرين، وهو التقليد وأثره وضرره على التفسير، فتراه يرفض أخذ المسائل التقليدية بوصفها قضايا مسلّمة وتحكيمها في كتاب الله تعالى، وجعلها قاعدة لتفسيره. لقد وصل الحدّ بهؤلاء إلى أخذ المسائل التقليدية وإن كانت مخالفة لآياته الصريحة(٣٥). إن المسائل الدينية لا تؤخذ إلا من نصوص القرآن(٣٦).

ويهدف الشيخ رشيد من وراء هذه الحملة النقدية إلى تقرير وجوب التجرد في فهم القرآن من كل أفكار مسبقة، ويقطع إفرازات العقل عن الامتداد إلى ساحة النص القرآني؛ لئلا تختلط به فتعكر صفوه ونقاءه وتحجب هدايته.

---

(٣٣) نفسه، ج٥، ص: ٧٣.

(٣٤) نفسه، ج٣، ص: ١٧٢. وانظر: محمد أحمد درنيقة؛ السيد محمد رشيد رضا: إصلاحاته الاجتماعية والدينية (١٩٨٦)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص: ١١٤–١١٥.

(٣٥) نفسه، ج٤، ص: ٦٢.

(٣٦) نسه، ج٧، ص: ١٩٨.

يقول: ولكل أهل زمن غرام في شيء من الأشياء، يتحكم في عقولهم وأفهامهم. والواجب على من يريد فهم كتاب الله أن يتجرّد من التأثر بكل ما هو خارج عنه، فإنه الحاكم على كل شيء، ولا يحكم عليه شيء[٣٧].

وهكذا يبين الشيخ أن من أسباب عدم فهم كتاب الله تعالى: حمله على المذاهب، وهو المقصود بالتفسير بالرأي عنده، يقول: التفسير بالرأي أن ينتحل المقلّد مذهباً يجعله أصلاً في الدين، ثم يحاولون حمل الآيات عليه ولو بالتأويل والتحريف، أو إخراج الألفاظ عن ظواهر معانيها المتبادرة منها. والأخذ ببعض الكتاب وترك بعض من التفسير بالرأي كذلك[٣٨]. قال: «وما دامت عصبية المذاهب غالبة على الجماهير فلا رجاء في تحريهم الحقّ في مسائل الخلاف، ولا في تجنبهم ما يترتب على الخلاف من التفرّق والعداء»[٣٩]. أما التفسير المبني على الحجّة والدليل فهو واجب شرعي.

---

(٣٧) نفسه، ج٣، ص: ٥٨.

(٣٨) نفسه، انظر: ج٥، ص: ١٠٦، ١١٣. ج٣، ص: ٦. ج٤، ص: ٣٩٧.

(٣٩) نفسه، ج٦، ص: ٤٦٦.

المبحث الثالث
مؤهلات المفسِّر وقواعد التفسير

لقد كان لهذه الجهود المقوّمة لمنهج التعامل مع القرآن أثر لا يخفى على كل مدارس التفسير في العصر الحديث، وكانت عملية المراجعة للجهود السابقة من أبرز الأعمال الواضحة في تفسير المنار، لأنه أراد أن يبني على ما تقدم، وينتقل بعلم التفسير إلى آفاق أوسع وميادين أرحب. وإذا كان الشيخ رشيد يهدف – من وراء كل ذلك النقد – إلى تحسين منهج فهم القرآن والتعامل معه، فما سبيله إلى ذلك؟ وهل استطاع أن يتجاوز سلبيات التفسير التي وجّه إليها سهام نقده؟ وما الأسس والقواعد التي وضعها تحقيقاً لذلك؟

أقول: بذل الشيخ رشيد جهده في إعادة تنظيم شؤون علم التفسير ابتداء بالشروط الواجب توافرها في المفسّر وانتهاء بالوسائل والأساليب والقضايا التفسيرية التي حظيت عنده بأولوية بحثية متميزة، والتي تعد من أبرز ملامح منهجيته.

لقد بينا – فيما سبق – أن الشيخ قد وجّه اهتمامه البالغ إلى مقاصد القرآن والسنن الإلهية الجارية في عالم الكون والإنسان. وهذا التوجه من أول ما يخدم ويضبط علم التفسير، إذ من أهم ما في هذا العلم: أهدافه وغاياته الضابطة لمسيرة العملية التفسيرية من حيث تجاوزها كل القضايا الهامشية والإسهاب والإطناب في أمور لا تمتّ إلى علم التفسير بصلة مما كان مشغلة للقارىء عن هداية القرآن الكريم. فتقييد التفسير بتحقيقه لمقاصد القرآن جهد كبير بذلته مدرسة المنار، وافتتحت به عملها الجاد «تفسير المنار». ويمكن إبراز هذا الجهد من خلال القواعد التفسيرية الآتية التي تعدّ أسساً منهجية لفهم القرآن الكريم:

القاعدة الأولى: الاستعانة بكل وسيلة توصل إلى فهم القرآن.

كان الاقتصار على ما هو ضروري من عموم فنون الآلة فعلاً مقصوداً من هذه المدرسة التي رأت أنها ملزمة باتباع كل وسيلة تؤدي إلى فهم القرآن، سواء

أكانت هذه الوسيلة معلومة من قبل أم حديثة أنتجتها أحوال المعرفة المعاصرة المتطوّرة، بشرط أن تستقيم مع المنهج الصحيح في فهم القرآن الكريم. وفي الوقت نفسه كان يحذّر من اتباع وسائل لا تخدم الفهم الصحيح له.

قال: «فنون العربية لا بدّ منها، واصطلاحات الأصول وقواعده الخاصة بالقرآن ضرورية – أيضاً – كقواعد النحو والمعاني، وكذلك معرفة الكون وسنن الله تعالى فيه، كل ذلك يعين على فهم القرآن. وأما الروايات المأثورة عن النبي ﷺ وأصحابه وعلماء التابعين في التفسير: فمنها ما هو ضروري أيضاً؛ لأن ما صحّ من المرفوع لا يقدّم عليه شيء، ويليه ما صحّ عن علماء الصحابة مما يتعلق بالمعاني اللغوية أو عمل عصرهم، والصحيح من هذا وذاك قليل[٤٠].

ويبين أن شأنه في تفسير كتاب الله: الاستعانة على فهمه ببيان سنة رسول الله، وما جرى عليه سلف الأمة من الصحابة والتابعين في الصدر الأول، قال: «وذلك شأننا في فهم كتاب الله عز وجل، نستعين عليه بما ذكر، وبأساليب لغة العرب، وسنن الله في خلقه»[٤١]. وهذا حين يتوقف فهم الآية على ذلك، وتتنوع الوسائل بحسب مقاصد الآيات وما تتضمنه من معاني.

وإذا كان القرآن الكريم يمثل الشرعة والمنهاج والسبيل الأوحد لإدارة الحياة الإنسانية وتوجيهها بما يضمن السعادة الكاملة لبني الإنسان، فإن المفسّر معنيّ ببيان كيف يكون القرآن كتاب الهداية الرائد للحياة الإنسانية في مختلف مجالاتها. وهو كذلك معنيّ ببيان إعجاز القرآن الكريم وتفوّقه على كل مظاهر القوة المعنوية التي يتمتع بها البشر[*]. وعلى المفسّر لكتاب الله كذلك ان يرقى في بيانه لمعانيه إلى هذا المستوى من التفكير الجادّ من أجل تحقيق هذه الأهداف، ومن أجل ذلك – أيضاً – عليه أن يستعين بكل وسيلة صحيحة

---

(٤٠) رضا، تفسير المنار، ج١، ص: ٧–٨.

(٤١) المرجع السابق نفسه، ج٦، ص: ١٩٦.

(*) انظر: زياد الدغامين؛ إعجاز القرآن وأبعاده الحضارية في فكر النورسي (١٩٩٨)، دار النيل، إزمير. ص: ٢٠٠–٢٥٦.

تمكنه من ذلك. وهذا الذي يظهر في تفسير المنار، لقد وضّح القصد من التفسير، وارتقى إلى أهدافه الشاملة، ودعا إلى التمكن من علوم العصر لبيان هداية القرآن في مجالات الحياة المختلفة.

أقول: إن النظر إلى القرآن الكريم على أساس أنه كتاب هداية وإعجاز ومنهج حياة، يقرر في ذهن المفسر أن يقدّم التفسير في ضوء هذا الأساس، لا يبتعد عنه بحال، وهذا الهدف لا ينتهي الكلام فيه، إذ كل مفسر في كل عصر مطالب بأن يظهر كيف يكون القرآن كتاب هداية وإعجاز ومنهج حياة بلغة يفهمها عصره، وأساليب ووسائل تنتسب إلى عصره، وأن لا يكون الخطاب التفسيري وعظياً إرشادياً تاريخياً متخلّفاً عن متطلبات الحياة ومستجدّاتها.

ويفصح الشيخ رشيد عن قصده من التفسير والمؤهلات اللازمة لذلك، وهو بيان معنى القرآن، وطرق الاهتداء به في هذا الزمان، قال: ولن نكون مهتدين به حتى تكون منا أمة تدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، من الطرق التي يرجى نفعها، وذلك يتوقف على معرفة تامة بما تدعو هذه الامة إليه، ومنه العلم بالقرآن الذي ينظر فيه قبل كل شيء إلى كونه هدى وعبرة وموعظة على نحو تفسيرنا هذا، وكذلك ما صحّ من سنّة الرسول ﷺ وسيرته، وينظر إلى الفرق بين ما تواتر عملاً وما صحّ سنداً وما ليس كذلك. ويتوقف على العلم بحال من توجه إليهم الدعوة في شؤونهم واستعداداتهم وطبائع بلادهم وأخلاقهم. ومعرفة مناشيء علم التاريخ العام، ليعرف الفساد في العقائد والأخلاق والعادات، فيبنون الدعوة على أصل صحيح. ومعرفة علم تقويم البلدان، أي: علم الجغرافيا. ومعرفة علوم النفس والأخلاق والاجتماع والسياسة ولغات الأمم، والفنون المتداولة في الأمم. ومعرفة الملل والنحل ومذاهب الأمم. وكل هذا من الشروط العلمية[٤٢].

أقول: هذه شروط مهمة أضافتها مدرسة المنار إلى مؤهلات مفسّر القرآن، تحدّدت بناء على مستجدّات العصر، وليس القصد منها إلا أن يمثل المفسّر

(٤٢) رضا، تفسير المنار، انظر: ج٤، ص: ٣٩-٤٤.

الواقع الذي يعيشه، ويرافق المستوى العلمي والمعرفي في زمانه، ويستخدم وسائل جديدة تعين على فهم القرآن الكريم. وهذه نظرة سليمة وتوجّه سديد، إذ ليس هناك تحفظ على أية وسيلة فاعلة توصل إلى الفهم الصحيح لكتاب الله تعالى، لذلك تراه يبيّن أن فهم القرآن يتوقف على معرفة بلاغته، ومعرفة علم التاريخ، ومعرفة السيرة النبوية وأهميتها في فهم القرآن، ومعرفة علم الاجتماع وغفلة المفسرين عنه. بل يجب العلم بسنن الاجتماع(٤٣).

ومن الشروط أيضاً: فهم حقائق الألفاظ المفردة التي أودعها الله القرآن الكريم. وعلم الأساليب، وعلم أحوال البشر، والعلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن، العلم بسيرة النبي ﷺ(٤٤).

ولا مانع من الاستنباط والفهم المستقل للقرآن لمتابعة قضايا العصر، بل يعدّ ذلك واجباً في نظر الشيخ رشيد الذي يقول: «ثبت في الأصول أنه يجوز للعالم أن يفسّر القرآن ويفهم منه ما لم يكن مروياً عن أحد، بشرط أن لا يخرج عن مدلولات اللغة العربية في مفرداتها وأساليبها»(٤٥).

لكنه – في الوقت نفسه – يرفض التفسير بمجرد دلالة اللغة العربية من غير مراعاة المتكلم بالقرآن وهو الله عز وجل، والمنزل عليه والمخاطب به(٤٦).

ويبين أن في القرآن الكريم إرشاداً للمخاطبين إلى علم الفلك وعلم الحيوان(٤٧). وعليه فلا مانع من الاستدلال بالبحوث العلمية الحديثة لتوضيح ما تتطلبه معاني القرآن الكريم.

وهكذا، يتوجب الأخذ بكل وسيلة تكشف عن معاني القرآن الكريم، ولا ينبغي أن تتحوّل الوسيلة إلى هدف أو غاية، فتكون هي مقصود العمل التفسيري.

---

(٤٣) المرجع السابق نفسه، انظر: ج١، ص: ١٨٢، ٣١١. ج٤، ص: ٤٢، ١٣٩.
(٤٤) انظر: مقدمة تفسير المنار.
(٤٥) نفسه، ج٤، ص: ٤٣٩، ٤٦٦.
(٤٦) نفسه، ج١، ص: ٩. وانظر: ج٦، ص: ٤٧٢.
(٤٧) نفسه، ج٧، ص: ٣٩٢، ٦٣٧.

القاعدة الثانية: ليس في القرآن الكريم ما لا يفهم معناه

الحديث في هذه القاعدة ليس جديداً، والكلام فيها مبني على فهم قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلۡعِلۡمِ﴾ (آل عمران: ٧) وإذا كان الراسخون في العلم يعلمون تأويله، ليس في القرآن الكريم ما لا يفهم معناه. ويؤيّد الشيخ رشيد أن: «المتشابه في القرآن إضافي، وليس فيه ما لا يفهم معناه»[٤٨]. وقد سار في تفسيره على هذا الأساس. ووقف بالمرصاد لكل التأويلات الزائغة التي تحاول استثمار هذه القاعدة بصرف معاني الآيات عن مقاصدها[٤٩].

لكن ينبغي أن يكون واضحاً أن هذا الذي يفهم معناه هو كلام يتعلق بالخطاب التكليفي بشموله، ومما يريد سبحانه وتعالى من المكلّف فهمه ومعرفته في حدود طاقته وقدراته العقلية، ولم يكلّفه شيئاً لا يمكن تعقله مما يتعلق بعالم الشهادة، أو بمهمته بوصفه خليفة، أو بمنهاج تحقيق العبودية لله على وجه الأرض. أما عالم الغيب فقد كفى الوحي العقل مؤنة التكلّف في معرفة أسراره، وبحسب العقل التصديق اليقيني الجازم.

القاعدة الثالثة: إطلاقية القرآن وعالميته وشموله

إحاطة المفسر بخصائص القرآن وغاياته ومقاصده من الخطوات المهمة التي تظهر آثارها على تفسيره وتفهّم معانيه، وهذه الخاصية القرآنية ينبغي أن تظهر على أساس أنها قاعدة في منهج التعامل مع القرآن، لينأى المفسر في خطابه التفسيري عن التقوقع والانغلاق على رأي أو مذهب هو عرضة للبحث والنظر والنقد والمراجعة، فمعاني آيات القرآن الكريم – كما يقول الشيخ

---

(٤٨) نتفسه، ج٣، ص: ١٧٢.
(٤٩) نفسه، ج٣، ص: ١٨٩.

رشيد – شاملة لجميع الناس، وليس لأناس مخصوصين، فإن القرآن لا يرشد أشخاصاً مخصوصين[٥٠].

«وهذا يعني وجوب تبيينه لغير المؤمنين به، لأجل دعوتهم إليه»[٥١]. أقول: هذا ما كانت الحاجة إليه ماسّة في تراثنا التفسيري، فالمفسّرون لم يكونوا يكتبون لغير المسلمين لدعوتهم إلى الإسلام، وكان خطابهم محصوراً في دائرة تثقيف المسلم الفرد، وظل – كما ذكرنا – الخطاب الإسلامي الإنساني عاجزاً. ومع ذلك لم تتعظ الأمة، والسبب يرجع إلى المفسرين أنفسهم، يقول الشيخ رشيد: «إن عدم اتعاظ الأمة بالقرآن أسهم فيه عمل المفسرين الذين حملوا آيات الوعيد على المشركين واليهود والنصارى فانصرفوا عن الاعتبار بالمقصود»[٥٢]. هذا الفهم يوحي بتقييد القرآن ببيئة تاريخية معينة، وكأن المفسر وهو يقرأ آيات الوعيد لا يستحضر إلا صور أبي لهب وأبي جهل والوليد بن المغيرة وثلّة من المشركين ناصبت الرسول ﷺ العداء بمكة. إن خاصية العالمية في خطاب القرآن تحتم عدم إلقاء الظلال البيئية والتاريخية التي نزل فيها على نصوصه الشريفة، لأن طبيعة هذه النصوص تأبى إلا أن تكون إنسانية عالمية شاملة.

إن إطلاقية الخطاب القرآني تعني أنه لا يتحدد أو يتحجّم في زمان معين، أو مكان معيّن أو قوم معينين مع وفائه بحاجات أهل كل زمان ومكان. ولذلك يجب على المفسر، بل على كل مسلم أن يفهم أنه هو المقصود بخطاب القرآن، وينبغي أن يحمل كل آية في القرآن على نفسه، حتى الآيات الواردة في المشركين أو في الأقوام السابقة. وهذا ما سبق العلماء إلى بيانه[٥٣]. وهو ما تقرر كثيراً في تفسير المنار[٥٤].

---

(٥٠) نفسه، ج١، ص: ١٧٩.
(٥١) نفسه، ج٤، ص: ٢٨٠.
(٥٢) نفسه، ج٢، ص: ٨١.
(٥٣) انظر: زياد الدّغامين، نظرية الإمام الغزالي في التعامل مع القرآن: قراءة وفهماً وتفسيراً. مجلة المسلم المعاصر، تحرير جمال الدين عطية. العدد ٨٠، ١٩٩٦، ص: ١٠٥.
(٥٤) انظر: تفسير المنار، ج١، ص: ٣٤١. ج٧، ص: ٥٠٤. ج١١، ص: ٣٤٨.

وينقل عن شيخه في هذا المعنى قوله: «إن القرآن هاد ومرشد إلى يوم القيامة، وأن معانيه عامّة وشاملة، فلا يعد ويوعد ويعظ ويرشد أشخاصاً مخصوصين، وإنما نيط وعده ووعيده وتبشيره وإنذاره بالعقائد والأخلاق والعادات والأعمال التي توجد في الأمم والشعوب. فلا يغترنّ أحد بقول بعض المفسرين» إن هذه الآيات نزلت في المنافقين – مثلاً – الذين كانوا في عصر النبي ﷺ فيتوهم أنها لا تتناوله وإن كانت منطبقة عليه؛ لأنه لم يتخذ القرآن إماماً وهادياً، ولم يستعمل عقله ومشاعره فيما خلقت له، بل اكتفى عن ذلك بتقليد آبائه ومعاصريه في كل ما هم فيه»[٥٥].

وعليه، فإن أسباب النزول تؤدي وظيفة مهمة، ولكنها محدودة تتمثل في الكشف عن أحوال تنزّل الآيات القرآنية، لكن لا تنحصر معاني الآيات فيمن نزلت فيهم تلك الآيات. وبمناسبة الحديث عن صفات المنافقين في أول سورة البقرة يقول الشيخ رشيد: «ومن هنا يعلم ما الإيمان الذي يعتدّ به القرآن، وهو يظهر لمن يقرأ القرآن ليحاسب به نفسه، ويزن إيمانه وأعماله بما حكم به على إيمان من قبله وأعمالهم، لا لمن يقرؤه على أنه قصة تاريخية مات من يحكي عنها، واستثنى القارىء نفسه ممن حكم عليهم فيها، فإن كان مات من كانوا سبب النزول فالقرآن حي لا يموت، وينطبق حكمه ويحكم سلطانه على الناس في كل زمان»[٥٦]. وتجد تفسير المنار كثيراً ما يشير إلى حكمة إطلاقات القرآن التي توضّح هذه الخاصية[٥٧].

القاعدة الرابعة: وحدة القرآن البنائية والتفسير الموضوعي

هذه قاعدة مهمة من قواعد التعامل مع القرآن الكريم، بل هي مظهر من مظاهر إعجازه، فالقرآن يفسر بعضه بعضاً، وهو محكم كله تتناسق ألفاظه

---

(٥٥) نفسه، ج١، ص: ١٧٩–١٨٠، ٣٤١.

(٥٦) نفسه، ج١، ص: ١٥٣. وقد نبّه د. فهد الرومي إلى ذلك، انظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، ج٢، ص: ٧٧٠.

(٥٧) انظر: ج٤، ص: ٦٢، ٢٥٨، ٤٢٤، ٣٠٥–٣٠٧، ٣٢٣.

وتتناسب معانيه، ويظهر للمتأمل أنه بناء واحد من أي جانب نظرت إليه رأيت الإحكام والإعجاز. وهو يفوق – في عين الناظر – البناء الكوني المحكم[٥٨].

ومنهج التعامل مع القرآن يقضي بضرورة حضور هذه القاعدة في ذهن المفسّر، ليجلّي مظاهر الهداية والإعجاز القرآني، ويمنع أن يتسرب إلى بيان القرآن المعجز ومقاصده النبيلة الظنون والأوهام والأغراض الساذجة المتمثلة في نصرة الآراء والاجتهادات. يقول الشيخ رشيد: «وقع حذّاق النظّار في الخلاف لاتخاذ مذاهبهم أصولاً مسلمة، ومحاولة حمل نصوص كتاب الله تعالى، وأخبار رسوله ﷺ عليها، لتصحيحها، وإبطال مذاهب خصومهم المخالفة لها، فهم ينظرون في كل آية تتعلّق بقواعد هذه المذاهب مفردة على حدتها، ولا يعرضونها على سائر الآيات التي في موضوعها، ليكونوا مؤمنين وعاملين بالكتاب كله غير جاعليه عضين. ومن استعرض بعقله عند تحقيق كل عقيدة أو مسألة مجموع ما ورد فيها يتجلى له الحق، وأنه لا مجال للاختلاف في كتاب الله سبحانه»[٥٩].

فاستقراء القضية الواحدة والموضوع الواحد في القرآن كله منهج أمين في تحقيق حكم القرآن وأوجه هداياته ومظاهر إعجازه في مجموع القضايا التي تهمّ الإنسان والإنسانية. ويظهر به – كذلك – أن القرآن الكريم من أوله إلى آخره كلام واحد متصل، يصدّق ويفسّر بعضه الآخر، وإذا كان ذلك كذلك، فإنّ جعل نصوصه متضاربة أو متعارضة جناية علمية ارتكبت في حقّ منهجية التعامل مع القرآن الكريم، وما تزال آثارها ظاهرة في تعامل المذاهب الإسلامية مع القرآن اليوم.

يقول الشيخ رشيد – مؤكداً أهمية هذه القاعدة –: «وفهم القرآن لا يكون صحيحاً إلا بالجمع بين الآيات المتقابلة في الموضوع الواحد الذي يختلف التعبير فيه باختلاف الوجوه والاعتبارات التي ضلت الفرق بنظر كل منها إلى إحداها دون الأخرى مطلقاً، أو جعلها ما وافق مذهبها أصلاً يردّ غيره إليه

(٥٨) الدغامين، إعجاز القرآن وأبعاده الحضارية في فكر النورسي، مرجع سابق، ص: ٩١.
(٥٩) رضا، تفسير المنار، ج٨، ص: ٤٤–٤٥.

بالتأويل، قريباً كان أو بعيداً، ومثل الجبرية مع القدرية – هنا – كمثل المرجئة مع الوعيدية من الخوارج وغيرهم من آيات الوعد والوعيد، فهؤلاء كلهم من «الذين جعلوا القرآن عضين» وضربوا بعضه ببعض»[٦٠].

ويبين أن من الأسباب التي أدت إلى تمزيق الوحدة البنائية: أسباب النزول، فقال: «ومن عجيب شأن رواة أسباب النزول: أنهم يمزّقون الطائفة الملتئمة من الكلام الإلهي، ويجعلون القرآن عضين متفرّقة، بما يفككون الآيات ويفصلون بعضها من بعض، وبما يفصلون بين الجمل الموثقة في الآية الواحدة، فيجعلون لكل جملة سبباً مستقلاً، كما يجعلون لكل آية من الآيات الواردة في مسألة واحدة سبباً مستقلاً»[٦١].

ويبين أن تفسير القرآن بالقرآن من المهمات الأساسية للمفسر. قال: «القرآن يفسر بعضه بعضاً، ويؤيّد بعضه بعضاً، وما أخطأ كثير من العلماء في فهم كثير من الآيات إلا لذهولهم عن مقارنة الآيات المتناسبة بعضها ببعض، واستبدالهم بذلك تحكيم الاصطلاحات والقواعد التي وضعها علماء مذاهبهم، وإرجاع الآيات إليها، وحملها عليها[٦٢].

لقد دعت هذه المدرسة إلى المنهج الموضوعي في التفسير، لتحقيقه هذه الخاصية القرآنية، لكنها وإن دعت إلى ذلك إلا أن الفكرة لم تتجلّ بصورة عملية واضحة، غاية الأمر أن المفسر كان يعرض أهداف السورة ومقاصدها، ثم يميل عند تفسيرها إلى المنحى التجزيئي، فوقعت هي الأخرى في خلافات جزئية في مناقشاتها الفقهية وقضاياها المذهبية عموماً. ولا يمكن عدّ تفسير المنار أنموذجاً صالحاً للتدليل على منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، مع أنه كان بالإمكان أن يطوّر الشيخ رشيد منهج التفسير الموضوعي لاكتشاف حقائق القرآن المعجزة التي يمكن من خلالها مواجهة الزحف الفكري

---

(٦٠) نفسه، ج١٠، ص: ١٩٨. وانظر: ج١٠، ص: ١٨٢. ج١، ص: ٢٢.
(٦١) نفسه، ج٢، ص: ١١. وانظر بحثنا: إعجاز القرآن، ص: ٩٤.
(٦٢) نفسه، ج٥، ص: ١٠٧.

والثقافي الغربي الاستعماري على المجتمعات الإسلامية، ولكنه اكتفى من ذلك كله بإشارات موجزة تبين قيمة هذا المنهج التفسيري.

القاعدة الخامسة: التدبّر والتأمّل

يرشد القرآن الكريم إلى مبدأ التدبّر والتأمل في نصوصه الكريمة للاستدلال على كونه تنزيلاً من ربّ العالمين، جاء يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين، وجاء كتاب هداية وإعجاز ودستور حياة، وجاء رحمة للعالمين وجاء موعظة وبياناً للناس، ليحيى من حيّ عن بيّنة، ويهلك من هلك عن بيّنة.

وتتطلب عملية التدبُّر إشراك الوجدان مع القلب، بل إشراك كل حواس الإنسان، بمعنى أن كل وسائل الإدراك – في الإنسان – ينبغي أن تسهم في إنضاج عملية التدبّر. وهذا من شأنه أن يقود إلى فهم صحيح، وسلوك مستقيم، إن كان التدبّر صحيح الغرض، سليم المقصد، وكان منهج الفهم منضبط الأسس والوسائل.

ولذلك يكون مثل قاريء القرآن الذي لا مقصد له إلا مجرّد التلاوة كمثل الحمار يحمل أسفاراً، لأنه لا يفهم أسراره، ولا يعرف هداية الله فيه[٦٣].

إن عملية التدبّر تقوم على تلاوة النص القرآني حق تلاوته، وحق التلاوة يعني تلاوته لتعقل عقائده، وتدبر حكمه ومواعظه، وفق أحكامه وشرائعه[٦٤]، هذا ما قاله الأستاذ الإمام، وتأيّد لدى رشيد رضا.

ويبيّن الشيخ أن من أسباب تخلّف الأمة: عدم تدبّرها لكلام الله عز وجل، ويقسم على أن المسلمين لو استقاموا على تدبّر القرآن والاهتداء به في كل مكان لما فسدت أخلاقهم وآدابهم، ولما ظلم واستبد حكامهم، ولما زال ملكهم وسلطانهم، ولما صاروا عالة في معايشهم وأسبابها على سواهم»[٦٥].

---

(٦٣) نفسه، ج١، ص/ ٤٤٨.
(٦٤) نفسه، ج١، ص: ٤٤٧.
(٦٥) نفسه، ج٥، ص: ٢٩٧.

والاستماع وسيلة إلى تدبّر القرآن كذلك؛ وبسبب إهمال الاستماع له ضعفت الأمة، وتراجعت مسيرة فهم القرآن، يقول الشيخ رشيد: «إن تدبّر القرآن وتأمّل ما يهدي إليه بأسلوبه الذي امتاز به هو طريق الهداية القويم، وصراط الحق المستقيم، فإنه يهدي صاحبه إلى كونه من عند الله، وإلى وجوب الاهتداء به، لكونه من عند الله الرحيم بعباده، العليم بما يصلح به أمرهم، مع كون ما يهدي إليه معقولاً في نفسه لموافقته للفطرة، وملاءمته للمصلحة»(٦٦).

وتكمن أهمية التدبّر في تحقيقه مستوى إيماناً متقدّماً، وكما أن التفكّر في ملكوت السموات والأرض يزيد الإيمان ويحقق العبرة والفائدة، فكذلك آيات القرآن تزيد من يتلقاها إيماناً كلما تلقّى شيئاً منها، وقد يتدبّرها المؤمن بعد العلم بها بأيام أو سنين، فيفهم منها ما لم يكن يفهم فيزداد إيمانا(٦٧).

ويذكر الشيخ رشيد من فوائد التدبّر أنه يضع حداً للجهالة التي غلبت على بعض فئات المسلمين، فلو تدبّر جهال المسلمين القرآن لعلموا أنهم مغرورون بالاعتماد على الأقطاب والأوتاد والأبدال في تحمّل البلاء عنهم، ومنع العذاب أن ينزل بالأمة ببركتهم...(٦٨).

ويعزو بعض أخطاء المفسرين إلى عدم طلبهم حكمة القرآن من خلال التأمل في سوره وما فيها من وجوه الإعجاز المتكررة، ولكنهم طلبوها من الروايات المأثورة – على قلتها وقلة ما يصح منها –، ومن مدلول كل آية منها وحدها في مفردات اللغة وجملها بمقتضى القواعد الفنية أو الفقهية وأصولها(٦٩).

ويخلص إلى أن التدبّر فرض على كل مكلف، وليس خاصاً بنفر يسمّون المجتهدين يشترط فيهم شروط ما أنزل الله بها من سلطان، وإنما الشرط الذي لا بدّ منه، ولا غنى عنه، هو معرفة لغة القرآن: مفرداتها وأساليبها، فهي التي

---

(٦٦) نفسه، انظر: ج٩، ص: ٥٥٢–٥٥٥.
(٦٧) نفسه، ج٤، ص: ٢٤٢.
(٦٨) نفسه، انظر: ج١، ص: ٣٧٠.
(٦٩) نفسه، انظر: ج١٢، ص: ٣٢–٣٣، ١٦٥.

يجب على من دخل في الإسلام، ومن نشأ فيه أن يتقنها بقدر استطاعته. وأنه يجب الاستقلال في فهم القرآن؛ لأن التدبّر لا يتم إلا بذلك، ويلزم من ذلك بطلان التقليد... إنه لا يوجد كتاب لإمام مجتهد ولا لمصنف مقلّد يغني عن تدبّر كتاب الله في إشعار القلوب عظمة الله تعالى وحبّه والرجاء في رحمته والخوف من عقابه[٧٠].

هذه هي حجة الشيخ رشيد في انتقاد المفسرين، وهذه أهم القواعد والأسس التفسيرية الصالحة لفهم القرآن، وهذه أهم الشروط التي يجب توافرها في المفسّر لكتاب الله تعالى، وهذا يدفعنا إلى التساؤل الآتي: هل يمكن أن نخلص إلى أن الشيخ رشيد صاحب منهج ذي طابع تجديدي في التعامل مع القرآن الكريم؟ لقد لاحظ المفكر المسلم مالك بن نبي أنه قد يؤخذ على صاحب المنار عدم اهتمامه بوضع منهج في التفسير الذي كتبه، وذكر ان جهود هؤلاء العلماء على الرغم من أنها لا تغفل الجانب الاجتماعي في علم التفسير إلا أنها لم تحدد منهجها الكامل... إن تفسير الشيخ رشيد رضا الذي اتّبع فيه إمامه الشيخ محمد عبده لم يضع هو الآخر هذا المنهج، فقد كان همّه أن يخلع على القديم صبغة عقل جديد، ومع أنه لم يعدّل طريقة التفسير تعديلاً جوهرياً فإنه قد خلق في الصفوة المسلمة التي تعشق التجديد الأدبي اهتماماً بالنقاش الديني»[٧١]. بل جعل المسلم على بصيرة مما يحدق بالأمة من أخطار، و«كان الدفاع عن الإسلام أمام الغزو الفكري الذي تعرّض له، ودفع المطاعن المختلفة عنه»[٧٢] واحداً من الأسس المنهجية التي اعتمد عليها، والتي يندرج بيانها في سلسلة المقاصد القرآنية.

---

(٧٠) نفسه، انظر: ج٥، ص: ٢٩٥–٢٩٧.

(٧١) انظر: مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة عبدالصبور شاهين (١٩٨٦)، دار الفكر، دمشق، ص: ٥٨. وانظر: بحثنا، تفسير القرآن: إشكالية المفهوم والمنهج، مجلة المسلم المعاصر، تحرير جمال الدين عطية، العدد ٨١، ١٩٩٦. ص: ٢٦.

(٧٢) محسن عبدالحميد: دراسات في أصول تفسير القرآن (١٩٨٤)، دار الثقافة، المغرب. ص: ١٧. وانظر: اجنتس جولد تسهر؛ مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة عبدالحليم النجار (١٩٨٣)، دار اقرأ، بيروت. ص: ٣٩١–٣٩٤.

أقول: نعم، لم ينص الشيخ رضا في مقدمة تفسيره على المنهج الذي أراد أن يسلكه في التفسير، وإن كان واضحاً لديه أهداف التفسير ومقاصده وأسس فهمه، أما عبارة الأستاذ مالك حول التعديل الجوهري في المنهج فقد بيّن هو نفسه أن مشكلة التفسير القرآني هي مشكلة العقيدة الدينية لدى المتعلم ومشكلة الأفكار الدارجة لدى رجل الشارع، ومن هاتين الوجهتين ينبغي أن يعدّل منهج التفسير في ضوء التجربة التاريخية التي مر بها العالم الإسلامي. ويقصد بذلك عدم إعطاء العقيدة البعد الذي تستحقه في الهيمنة على التفسير من حيث كونها موجهة للطاقات الاجتماعية للأمة في بناء المجد والحضارة. وأما الأفكار الدارجة فهي معوقات الفهم الحق للنص القرآني من كل ما لم تثبت صحته من روايات أو إسرائيليات... إن الذي يريده الأستاذ مالك بقوله هذا: العمل على أن تفسّر الآية القرآنية بوصفها إلزاماً بالتجدد، لا أداة للتجديد فحسب[٧٣]. وللشيخ رشيد إسهام في هذا لا يخفى.

ومع ذلك كله، يبقى من غير المسلم تماماً الوصول إلى نتيجة مفادها أن الشيخ رشيد صاحب منهج تجديدي متكامل مبتكر في فهم القرآن الكريم، غاية ما في الأمر – على حدّ تعبير بعض الباحثين – أن اتجاه المنار يمثّل تياراً متميزاً ضمن المدرسة التراثية، ويعود تميّزه إلى الاجتهادات النقدية التي واجه بها التراث التفسيري، وإلى التصوّر الجديد الذي حاول أن يرسمه لمهمّة المفسّر. فيما عدا هذين المجالين نلاحظ أن تيار المنار لم يراجع المنهجية التراثية السلفية فيما يتعلق بطبيعة النص القرآني والخصوصيات المعرفية والثقافة التي ينبغي أن تتركّز عليها القراءة الحديثة[٧٤].

---

(٧٣) انظر: الظاهرة القرآنية، مرجع سابق، ص: ٥٨–٥٩. وانظر: إشكالية المفهوم والمنهج، مرجع سابق، ص: ٣٢–٣٣. وانظر: سليمان الخطيب؛ فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي (١٩٩٣) نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا. ص: ١٢٩. وانظر: مالك بن نبي؛ وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبدالصبور شاهين (١٩٨٦) دار الفكر، دمشق، ص: ١٥٦–١٥٧.

(٧٤) احميدة النيفر؛ التفاسير القرآنية المعاصرة: قراءة في المنهج. مجلة المنارة، جامعة آل البيت، الأردن، المجلّد الرابع، العدد الثالث، ١٩٩٩، ص: ٩٢.

لكن، لا يخفى أن الباحثين قد اختلفوا في وصف حقيقة ما عليه تفسير المنار من منهج، فبينما يقرر باحث أن: «معضلة تيار المنار هي أنه بشّر ببعض الآفاق التجديدية، لكنه ظل خطاباً محاصراً لا يقوى على التحرر الفعلي من خصوصيات التراث السلفي»[٧٥]. نجد باحثاً آخر ينتقد ابتعاده عن السلفية في فهم بعض قضايا العقيدة – كمعجزات الأنبياء – التي فهمها صاحب المنار في ضوء معطيات العقل وأحكامه[٧٦]. وهكذا، فهو تراثي سلفي على رأي، بينما هو عقلي على رأي آخر. ولا شك أن هذا الاختلاف يوضح العوامل والمؤثرات التي تدخلت في صناعة فكر صاحب المنار وانعكست من ثم على منهجه التفسيري.

(٧٥) المرجع السابق نفسه، ص: ٩٢.

(٧٦) انظر: فهد الرومي، اتجاهات التفسير، مرجع سابق، ج٢، ص: ٨٢٦، ٨٥٩. ومنهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، ص: ٨٠٩.

المبحث الرابع
اهتمامه بأزمات الأمة وبيان سبيل حلّها

لعلّ قضية الأمة وتخلّفها عن اللحاق بركب الحضارة والمدنية، وتفشّي الجهل بين أبنائها، وغفلتها عن كتاب ربّها، وتفرّقها بدل وحدتها، وتداعي الأمم عليها من أهم القضايا التي توجّه إليها تفسير المنار الذي جاهد من أجل إحكام عملية تفسير القرآن والتعامل معه بصورة تجعله مهيمناً على واقع الحياة والمجتمعات الإسلامية من خلال تنزيل النص على الواقع، أو الربط بينهما بصورة تشعر المسلم أنه يعيش في أجواء النص القرآني، وأن النص قريب من همومه وإحساسه، وقضاياه ووجدانه.

إن على المسلم أن يدرك أن لا دواء للأمة إلا بالعودة إلى القرآن، لأنه المصلح الأعظم، والمرشد الأقوم الذي لا يصلح حالها إلا به، وإن البعد عنه بعد عن الله سبحانه وتعالى. وينبغي لكل فرد أن ينظر في نفسه وأن ينظر في القرآن، ويزن به ما هو عليه من العقائد والأخلاق والأعمال، فإن رجح به إيمانه فهو مسلم حقيقي، وإلا فليسع فيما يكون به الرجحان. إن الاستهداء به واجب على كل مكلّف في كل زمان ومكان، وأن يطال نفسه بفهمه والعمل به[٧٧].

وإن من أهم أسباب ضعف الأمة – كما يقول صاحب المنار – جهلها بالسنن الإلهية، وما ضاع ملكها وعزّها إلا بجهلها الذي كان سبباً لعدم الاهتداء بها في العمل، وما كان سبب هذا الجهل إلا الإعراض عن القرآن ودعوى الاستغناء عن هدايته بما كتبه لهم المتكلمون من كتب العقائد المبنية على القواعد الكلامية المبتدعة، وما كتبه الفقهاء من أحكام العبادات والمعاملات المدنية والعقوبات والحرب وما يتعلق بها[٧٨].

ويبيّن أن العلم بسننه تعالى في خلقه وسيلة ومقصد، وأنه أعظم العلوم التي يرتقي بها البشر في الحياة الاجتماعية المدنية، فيكونون بها أعزاء أقوياء

---

(٧٧) رضا، تفسير المنار، انظر: ج١، ص: ٨٢–٨٣، ٤٥٠.
(٧٨) نفسه، ج٩، ص: ٥٧٩.

سعداء، وأن الأمة الإسلامية قادرة على أن تنهض من كبوتها إذا ما وقفت على سنن الله في الخلق[٧٩]. وينقل عن شيخه قوله: «إن إرشاد الله إيّانا إلى أنّ له في خلقه سنناً يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علماً من العلوم، لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه، فيجب على الأمة بمجموعها أن يكون فيها قوم يبيّنون لها سنن الله في خلقه... والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها[٨٠].

و«يؤكد أهمية السنن الإلهية وضرورة وعيها والعمل بموجبها بوصفها من أهم السبل للخروج من أزمة التخلّف والتراجع التي تشهدها مسيرة الأمة، ويبيّن مفهوم قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ (الرعد: ١١). وأن الله جعل بقاء الأمم ونماءها في التحلّي بالفضائل، وجعل هلاكها ودمارها في التخلّي عنها، سنة ثابتة لا تختلف باختلاف الأمم، ولا تتبدل بتبدّل الأجيال كسنته تعالى في الخلق والإيجاد، وتقدير الأرزاق، وتحديد الآجال».

يقول: «علينا أن نرجع إلى قلوبنا ونمتحن مداركنا، ونسبر أخلاقنا، ونلاحظ مسالك سيرنا، لنعلم هل نحن على سيرة الذين سبقونا بالإيمان؟ هل نحن نقتفي أثر السلف الصالح؟ هل غيّر الله ما بنا قبل أن نغيّر ما بأنفسنا، وخالف فينا حكمه، وبدّل في أمرنا سنّته؟ حاشاه وتعالى عما يصفون، بل صدقنا الله وعده، حتى إذا فشلنا وتنازعنا في الأمر، وعصينا من بعد ما أرى أسلافنا ما يحبّون، وأعجبتنا كثرتنا فلم تغن عنا شيئاً، فبدّل عزّنا بالذل، وسموَّنا بالانحطاط، وغنانا بالفقر، وسيادتنا بالعبودية. نبذنا أوامر الله ظهرياً، وتخاذلنا عن نصره، فجازانا بسوء أعمالنا، ولم يبق لنا سبيل إلى النجاة والإنابة إليه. كيف لا نلوم أنفسنا ونحن نرى الأجانب عنا يغتصبون ديارنا، ويستذلون أهلها، ويسفكون دماء الأبرياء من إخواننا، ولا نرى في أحد منا حراكاً؟».

---

(٧٩) نفسه، ج٧، ص: ٥٠٠-٥٠١.

(٨٠) نفسه، انظر: ج٤، ص:١٣٩-١٤٢.

ثم يحثّ المسلمين على ضرورة الالتزام بدينهم، والعمل من أجل صيانة الأمة من الأعداء الذين يصولون على البلاد الإسلامية صولة بعد صولة، ويستولون عليها دولة بعد دولة، والمسلمون لا تأخذهم على الدين نعرة، ولا تستفزّهم للدفاع عنه حمية. ألا يا أهل القرآن! لستم على شيء حتى تفهموا القرآن، وتعملوا بما فيه من الأوامر والنواهي، وتتخذوه إماماً لكم في جميع أعمالكم، مع مراعاة الحكم في العمل كما كان سلفكم الصالح»(٨١).

ويؤكد الشيخ أن هداية القرآن توجب العمل والأخذ بالأسباب، وتعدّ ذلك ضرورة من ضرورات النهضة الإسلامية، ولا ينبغي مواجهة الأحداث بمجرد الدعاء، والاستغاثة بالأولياء، ويخاطب المسلمين بقوله: «ألم يتعلموا أن الاستعداد بالفعل مقدّم على الدعاء بالقول؟ ألم يروا أن سلفهم كانوا ينصرون أيام لم يكونوا دائماً يقولون: «اللهم نكّس أعلامهم، اللهم زلزل أقدامهم، اللهم يتّم أطفالهم، اللهم اجعلهم غنيمة للمسلمين» وأنهم بعد اللهج بهذه الكلمات غير منصورين في جهة من الجهات؟ فالعمل العمل، الاستعداد الاستعداد، الأهبة الأهبة «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة» ولا قوّة إلا بالعلم والمال، ولا مال إلا بالعدل، ولا عدل مع حكم الاستبداد، ثم بعد كمال الاستعداد يكون الذكر والاستمداد»(٨٢).

ويوجب الاعتبار بالماضي لمعرفة الحاضر والمستقبل، لقد أنعم الله على هذه الأمة بأن ألّف بين قلوب أفرادها بعد عداء، ومكّن لها في الأرض بعد استضعاف، وجعلها أمة وسطاً لا تفريط ولا إفراط، وحين كفرت الأمة بهذه النعم سلّط الله عليها حثالة الأمم، فالتتار، والغربيون أيام حروب الصليب، ثم لا تزال الفتن تحلّ بدارها، يقول نقلاً عن شيخه: «أليس من العجيب أن الجمهور الأعظم من المشتغلين بالعلم هم أجهلها بتاريخها، لا يعرفون شيئاً من ماضيها ولا حاضرها؟ ولكنهم يعترفون بأن الأمة في بلاء كبير ويعتذرون بالقضاء

(٨١) نفسه، ج١٠، ص: ٤١-٤٦.
(٨٢) نفسه، انظر: ج٤، ص: ١١٩-١٢٠. ج٦، ص: ٤٥٩.

والقدر عن معرفة الأسباب، ويكلون إلى القضاء والقدر النجاة منه أو البقاء فيه. إن هذه الأمة أمة واحدة وإن اختلفت ديارها، وتعددت أجناسها، ولا يمكن أن تعرف حقيتها إلا بعد معرفة تاريخها الماضي(٨٣).

ويذكر عن شيخه أن التشابه قائم بين اليهود ومسلمي هذه العصور في دينهم من حيث إنهم «لا يعلمون الكتاب إلا أمانيّ» التي فسّرها بعضهم بالقراءات، أي: أنهم لا حظّ لهم من الكتاب إلا قراءة ألفاظه من غير فهم ولا اعتبار يظهر أثرهما في العمل. وهذا النوع من التمنّي برّز فيه المسلمون حتى سبقوا من قبلهم، فقد أمسوا أكثر الأمم تلاوة لكتابهم، وأقلّهم فهماً له، واهتداء به(٨٤).

ويبين الشيخ أن المسلمين ليسوا على شيء حتى يقيموا القرآن في حياتهم، وإذا كان الله سبحانه لا يقبل من أهل الكتاب قبلنا تلك التقاليد التي صدّتهم عما عندهم من وحي الله تعالى على ما كان قد طرأ عليه من التحريف بالزيادة والنقصان، فأن لا يقبل منّا مثل ذلك مع حفظه لكتابنا أولى. يقول: «والناس عن هذا غافلون، وبالانتساب إلى المذاهب راضون، وبهدي أئمتها لا يقتدون، وإلى حكمة الدين ومقاصده لا ينظرون»(٨٥).

وتشتد لهجة صاحب المنار على الأمة مفصحة عما يؤرقها من اختلاف وتفرّق في وقت هي أحوج ما تكون فيه إلى الوحدة، فيقول: «قد خالفنا كل النصوص فتفرّقنا، وشاقّ بعضنا بعضاً بشبهة الدين، إذ اتخذنا مذاهب متفرقة كل فريق يتعصب لمذهب، ويعادي سائر إخوانه المسلمين لأجله، زاعماً أنه ينصر الدين، وهو يخذله بتفريق كلمة المسلمين؛ هذا سنيّ يقاتل شيعياً، وهذا شيعي ينازل إباضياً، وهذا شافعي يغري التتار بالحنفية، وهذا حنفي يقيس الشافعية على الذّمية، وهؤلاء مقلّدة الخلف يحادّون من اتبع طريقة السلف ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ (المؤمنون: ٦٨)

---

(٨٣) نفسه، ج١، ص: ٣١٠.
(٨٤) نفسه، ج١، ص: ٣٥٩-٣٦٠.
(٨٥) نفسه، ج٦، ص: ٤٧٦.

أم أمروا بهذا من الله ورسوله ومن الأئمة المجتهدين؟ كلا، بل كان التعادي والتنازع انحرافاً عن الصراط المستيم، واتّباعاً لخطوات الشيطان الرجيم»[٨٦].

إن دين الله دين توحيد واتّفاق، فتفريقه بالمذاهب المختلفة والأهواء المفرّقة، وجعل أهله شيعاً متعادية مفارقة له – خروج عن هدي الرسول الذي جاء به، يوجب براءته ﷺ من فاعلي ذلك، وهذا الأصل هو قاعدة سياسة الدين وحياة أهله الاجتماعية، والتشديد فيه يضاهي التشديد في أصل التوحيد الذي هو القاعدة الاعتقادية[٨٧].

يذكر الشيخ رشيد أربعة أسباب أدت إلى افتراق الأمة في دينها، وما تبعه من ضعفها في دنياها، هي: السياسة والتنازع في الملك. وعصبية الجنس والنسب. وعصبية المذاهب في الأصول والفروع. والقول في دين الله بالرأي. وهناك سبب خامس قد دخل في كل منها، وهو دسائس أعداء هذا الدين وكيدهم له[٨٨]. وتحدّث عن أخطار كل واحد من هذه الاسباب، وبيّن ما آل إليه حال الدولة العثمانية من ضعف وتمزّق بالعصبيات والدسائس... ثم يدعو الأمة إلى العودة إلى هداية القرآن في وحدة الأمة وأخوّة الدين وإقامة الشريعة وحفظها. يقول: وإذا ثبتت هذه الشعوب على الاهتداء بآيات ربّها ومراعاة سننه في التعاون الممكن على دفع العدوان عنها، وطلب الحرية والاستقلال المطلق لكل منها على أن تكون بعد ذلك متحالفة متكافلة في سياستها فهي بالغة – بتوفيق الله – منتهى ما تؤمّل وترجو[٨٩].

وينظر بمنظار قرآني إلى إصلاح مجالات الحياة الأخرى، فيدعو – بناء على نظرة ذكيّة – إلى إصلاح التعامل بالمال بتنميته وعدم اكتنازه، وبيان

---

(٨٦) نفسه، ج٢، ص: ٢٥٨–٢٥٩، ٢٨٠.
(٨٧) نفسه، ج٨، ص: ٢٨٥.
(٨٨) نفسه، ج٨، ص: ٢١٧.
(٨٩) نفسه، انظر: ج٨، ص: ٢٢٨–٢٣٢.

قيمته وأهميته في عملية النهضة الحضارية، ومما يشهد لذلك قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ (النساء: ٤): «ماذا جرى لنا نحن المسلمين بعد هذه الوصايا والحكم حتى صرنا أشدّ الأمم إسرافاً وتبذيراً وإضاعة للأموال، وجهلاً بطرق الاقتصاد فيها وتثميرها وإقامة مصالح الأمة بها في هذا الزمن الذي لم يسبق له نظير في أزمنة التاريخ من حيث توقف قيام مصالح الأمم ومرافقها وعظمة شأنها على المال، حتى إن الأمم الجاهلة بطرق الإقتصاد التي ليس في أيديها مال كثير قد صارت مستذلّة ومستعبدة للأمم الغنية بالبراعة في الكسب والإحسان في الاقتصاد؟

وينقل عن شيخه قوله: في هذه الآية تحريض على حفظ المال وتعريف بقيمته، فلا يجوز لمسلم أن يبذر أمواله. وكان السلف من أشدّ الناس محافظة على ما في أيديهم، وأعرف الناس بتحصيل المال من وجوه الحلال، فأين من هذا ما نسمعه من خطباء مساجدنا من تزهيد الناس، وغلّ أيديهم، وإغرائهم بالكسل والخمول، حتى صار المسلم يعدل عن الكسب الشريف إلى الكسب المرذول من الغشّ والحيلة والخداع. ذلك أن الإنسان ميال بطبعه إلى الراحة، فعندما يسمع من الخطباء والعلماء والمعروفين بالصلحاء عبارات التزهيد في الدنيا، فإنه يُرضي بها ميله إلى الراحة، ثم إنه لا بدّ له من الكسب، فيختار أقله سعياً، وأخفه مؤنة، وهو أخسه وأبعده عن الشرف»[٩٠].

ولكن الناس اليوم لم تعد تسمع لخطيب مثل هذا الكلام، فانكبت على تحصيل المال، والكل يبحث عن مصادر للرزق على صورة جعلت دين الله في حياته أمراً ثانوياً. وهذه ردّة فعل خاطئة لخطاب وعظي خاطيء!

---

(٩٠) نفسه، ج٤، ص: ٣٨٣-٣٨٤.

الخاتمة

وبعد، فلقد توجّه الشيخ رشيد إلى كل ميادين الإصلاح، ولم يدع ميداناً إلا وبيّن هداية القرآن فيه، فالتربية والتعليم والعلاقات الاجتماعية ونظام الأسرة والسياسة ومحاربة الاستعمار والاقتصاد... كل أولئك كانت محط اهتمام الشيخ رشيد وأستاذه الإمام. ومؤلفات الشيخ مثل: تفسير المنار، ومجلة المنار، وكتاب الوحي المحمدي، وكتاب الخلافة، وكتاب يسر الإسلام وأصول التشريع العام، وكتاب الوحدة الإسلامية والأخوّة الدينية، وكتاب حقوق النساء في الإسلام – كل هذه المؤلفات تشهد لاتجاهه وجهوده في العمل الإصلاحي في مختلف ميادين الحياة.

«وعلى الرغم من كل هذا، فإنه قد يؤخذ على أصحاب هذا الاتجاه أنهم افتقدوا أحياناً عنصر المبادرة إلى تصوّر حقيقي لبعض مشكلات الأمة، وأن إشاراتهم تخلّفت أحياناً عن مستوى الأحداث، وبقيت تابعاً يكتفي بالتبرير لحركة الإصلاح القائمة، دون أن يكون لها دور الريادة والتوجيه – قد يؤخذ عليهم مثل هذا التقصير – ولكن يبقى بعد ذلك أن حركتهم كانت في الحقيقة استجابة أصيلة لكل ظروف بيئتهم، وأن الخروج على الظروف كان خروجاً على سنن التطوّر. ويكفي أن جهدهم العظيم في إحياء المفهوم الإجتماعي للدين دور يذكره مؤرخو الحضارة العربية بكل تقدير»[٩١].

أقول: إنه لا ينبغي أن نحمّل المفسّر أو المصلح نتائج الفشل في إحداث عملية النهضة والتحرر من سطوة الأجنبي وسلطانه، وليس هذا مقدوراً لأي مفسّر، لأن الجهود الإصلاحية تنوء بالعصبة أولي الفكر الرشيد والعقل المستنير ما لم يشفع ذلك برامج منهجية، ووسائل علمية، وإمكانات مادية ضخمة، عندها يمكن الحكم على جهود المفسّر بالنجاح أو الفشل[٩٢].

---

(٩١) عفت الشرقاوي، الفكر الديني في مواجهة العصر، دار العودة، بيروت، ١٩٧٩، ص:٤٥١. وانظر: عفت الشرقاوي، قضايا إنسانية في أعمال المفسرين (١٩٨٠)، دار النهضة العربية، بيروت، ص: ٨٧.

(٩٢) زياد الدغامين: القرآن في مواجهة الحضارة الغربية بين النورسي ومحمد عبده، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، العدد ٣٣، (١٩٩٧)، انظر ص: ٥٠–٥٢.

إن بعض الباحثين والمغاربة – منهم خاصّة[٩٣]–، كثيراً ما يصف جهود الإصلاح الحديثة بالفشل، أو أنها لم تحقّق أهدافها، أو غير ذلك من أحكام تفتقر إلى معيارية منضبطة يعرف بها أسس النجاح والفشل، ويحدّد بها مفهوم المصلح وأهدافه. فالشيخ رشيد نذر كل حياته خدمة للإسلام بوصفه مسلماً فرداً، أخلص لدين الله، ونهض من أجل إصلاح أمته بفكره وقلمه. وقد استطاعت مدرسة المنار بمؤسسيها وتلامذتها من بعد أن تحدث نهضة في علم تفسير القرآن الكريم. وعلى مرّ التاريخ لم يمتلك مصلحو الأمة إلا التجديد في فهم معاني الدين، وبيان ذلك بحجج قوية، وبراهين ناجحة، وماذا يتوقع منهم غير الكلمة الحقّ والبيان المفحم؟ إن جهود الإصلاح تتطلب – كما أسلفنا – جهوداً جماعية، ووسائل مشروعة في التغيير للتي هي أحسن، وينبغي أن تتم عملية الإصلاح من خلال أعمال مبرمجة ومؤسسات قوية تحسن فهم الإسلام وتقديمه للناس. وإن الحركة الإسلامية على اختلاف تياراتها ومناهجها الإصلاحية تفتقر إلى مؤسسات التخطيط، وهي أحوج ما تكون إلى مراكز علمية بحثية متخصصة مستقلة، كي تستطيع أن تتعامل مع الواقع الذي نعيشه، وكي تتمكن من تحقيق شيء من إصلاح المجتمعات الإسلامية المعاصرة، فضلاً عن المجتمعات العالمية الأخرى.

إن تفسير المنار بنَفَسِهِ الدّعوي، ولهجته التي تشعر بالصدق، وقضاياه العديدة القريبة من هموم المسلم المعاصر، بل هموم الأمة بأسرها، وتوجهه إلى مقاصد القرآن، وتسجيله لأخطاء المفسرين، وفرضه شروطاً جديدة للمفسر، واهتمامه بالسنن الإلهية.. هو نمط ذو صبغة تجديدية في التعامل مع القرآن الكريم انبنى على خطاب وعظي إرشادي، ولكنه لم ينتظم في منهج جديد محكم

(٩٣) انظر – على سبيل المثال – محمد الفاضل بن عاشور؛ روح الحضارة الإسلامية (١٩٩٢)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة، ص: ٥٠–٥٧. زكي ميلاد، الشيخ محمد رشيد رضا وتحوّلات الفكر الإسلامي المعاصر، بحث مخطوط قدّم في حلقة دراسية بعنوان «محمد رشيد رضا: دوره الفكري ومنهجه الإصلاحي» تحت رعاية المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٩٩٩/٧/٢٨، ص: ٦–٧.

متكامل القواعد والأسس، على الرغم من دعوته إلى تخليص تفسير القرآن من الشوائب والحجب. وهو – أيضاً – أنموذج صالح لأن يطوّر ويبنى عليه.

لقد أدرك الشيخ رشيد قيمة الفهم الموضوعي الاستقرائي للنص القرآني، ودعا إليه، لكن لا على ذلك الاستيعاب والشمول الذي يجسد حقائق القرآن المعجزة في المعترك الحضاري المعاصر، ولو فعل ذلك لكان مجدّداً في منهج فهم القرآن. لقد تشتتت جهوده في تفسير المنار على الرغم مما أورده من معلومات قيّمة وعلم غزير مفيد؛ ذلك لأنه أخذ على عاتقه مهمة البحث في موضوعات أمة بأسرها، وهذا مما يحتاج إلى خبرة واختصاص وفرق بحثية متكاملة. رحم الله الشيخ محمد رشيد رضا، وجزاه عن الإسلام والمسلمين كل خير.

دليل المراجع

أ – المراجع العربية

١ – احميدة النيفر؛ التفاسير القرآنية المعاصرة: قراءة في المنهج. مجلة المنارة، جامعة آل البيت الأردن، المجلّد الرابع، العدد الثالث، ١٩٩٩.

٢ – زكي ميلاد؛ الشيخ محمد رشيد رضا وتحولات الفكر الإسلامي المعاصر، بحث مخطوط قدّم في حلقة دراسية بعنوان «محمد رشيد رضا: دوره الفكري ومنهجه الإصلاحي» تحت رعاية المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٩٩٩/٧/٢٨.

٣ – زياد الدّغامين؛ إشكالية المفهوم والمنهج، مجلة المسلم المعاصر، تحرير جمال الدين عطية، العدد ٨١، ١٩٩٦.

٤ – زياد الدغامين؛ إعجاز القرآن وأبعاده الحضارية في فكر النورسي (١٩٩٨)، دار النيل، إزمير.

٥ – زياد الدّغامين؛ القرآن في مواجهة الحضارة الغربية بين النورسي ومحمد عبده، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، العدد ٣٣، ١٩٩٧.

٦ – زياد الدّغامين؛ نظرية الإمام الغزالي في التعامل مع القرآن: قراءة وفهماً وتفسيراً. مجلة المسلم المعاصر، تحرير جمال الدين عطية، العدد ٨٠، ١٩٩٦.

٧ – سليمان الخطيب؛ فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي (١٩٩٣)، نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بيروت.

٨ – عبدالله شحاته؛ منهج الإمام محمد عبده في التفسير (بلا تاريخ)، المجلس الأعلى للشؤون الإلامية، القاهرة.

٩ – عفت الشرقاوي؛ الفكر الديني في مواجهة العصر (١٩٧٩)، دار العودة، بيروت.

١٠- عفت الشرقاوي؛ قضايا إنسانية في أعمال المفسرين (١٩٨٠)، دار النهضة العربية، بيروت.
١١- فهد الرومي؛ اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر (١٩٩٧)، مؤسسة الرسالة، بيروت.
١٢- فهد الرومي؛ منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير (١٤١٤)، مؤسسة الرسالة، بيروت.
١٣- مالك بن نبي؛ الظاهرة القرآنية، ترجمة عبدالصبور شاهين (١٩٨٦)، دار الفكر، دمشق.
١٤- مالك بن نبي؛ وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبدالصبور شاهين (١٩٨٦)، دار الفكر، دمشق.
١٥- محسن عبدالحميد؛ دراسات في أصول تفسير القرآن (١٩٨٤)، دار الثقافة، المغرب.
١٦- محمد أحمد درنيقة؛ السيد محمد رشيد رضا: إصلاحاته الاجتماعية والدينية (١٩٨٦)، مؤسسة الرسالة، بيروت.
١٧- محمد حسين الذهبي؛ التفسير والمفسرون (١٩٧٦)، دار الكتب الحديثة، بيروت.
١٨- محمد رشيد رضا؛ تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، دار المعرفة، بيروت.
١٩- محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي (١٩٧٩)، المكتب الإسلامي، بيروت.
٢٠- محمد الفاضل بن عاشور؛ روح الحضارة الإسلامية (١٩٩٢)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة.

ب – المراجع الأجنبية المترجمة

٢١- اجنتس جولدتسهر؛ مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة عبدالحليم النجار (١٩٨٣)، دار إقرأ، بيروت.